

المملكة العربية السعودية
وزارة المعارف
المديرية العامة للأبحاث
والمناهج والمواد التعليمية

أرض المعجزات

رحلة في جزيرة العرب

الدكتورة بنت الشاطئ

(يوزع مجاناً ولا يباع)



دار المعارف

المملكة العربية السعودية
وزارة المعارف
المديرية العامة للأبحاث
والمناهج والمواد التعليمية

أرض المعجزات ولقاء مع التاريخ

(بوزع مجاناً ولا يباع)

المملكة العربية السعودية
وزارة المعارف
المديرية العامة للأبحاث
والمناهج والمواد التعليمية

أرضُ المعجزات ولقاء مع التاريخ

تأليف

الدكتورة عائشة عبد الرحمن
(بنت الشاطئ)

أستاذ الدراسات القرآنية بجامعة القرويين
(المغرب)

الطبعة الثانية

(يوزع مجاناً ولا يباع)



دار المعارف

الناشر : دار المعارف - ١١١٩ كورنيش النيل - القاهرة ج . م . ع .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

دعاء :

« رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِنْدَ بَيْتِكَ
الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ فَاجْعَلْ أَفْتِدَاءَ مِنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ
وَأَرْزُقْهُمْ مِنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ » .

[سورة إبراهيم]

« رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ
الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ ، إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ » .
صدق الله العظيم

[سورة البقرة]

الإهداء

هذه طبعة جديدة من أرض المعجزات ، أكتبها بعد عشرين سنة من رحلتي الأولى إليها ، فتكشف لي الرؤية البعيدة عن آفاق خفيت عليّ وأنا في أخذة اللقاء الأول بالأرض المباركة التي شاء الله لها أن تكتب تاريخاً جديداً للعالم ، وأن تتجلى فيها من آياته تعالى :

● آية البيان ، في هذه اللغة العربية التي نشأت في رحاب البادية من ليل الجاهلية ، لتفرض حيويتها على الزمن ، وتشرف بتزول القرآن الكريم بها ، فتغدو لسان أمّتنا المعبر عن جوهر إنسانيتها الناطقة .

● وآية الفجر الصادق ، الذي يرزغ نوره في ليلة القدر المباركة ، حين خرج المصطفى ﷺ من « غار حراء » مبعوثاً بخاتم رسالات الدين ، يتلو الكلمات الأولى من هذا القرآن : معجزة نبوة ، وكتاب شريعة ، ولواء عقيدة وجهت التاريخ وحررت الإنسان ، والنور الذي حدا مسرى البشرية الأمية من ليل الجاهلية ، وقاد مسعاها إلى آفاق المثل العليا للحق والخير والجمال .

● ثم كانت آية العلم ، كشفت عن السر الذي أوجّهته الصحراء آماداً وحقباً ، وبثت الحياة في الوادي الأجرد غير ذي الزرع ، فتدفق عطاء كنوز الصحراء ، منطلقاً إلى شتى الآفاق ، ومشاركاً في موازين القوى لعالم اليوم . . .
هذه هي أرض المعجزات .

أسترجع فيها ذكريات رحلتي الأولى إليها من قبل عشرين عاماً ، وأضيف إليها عطاء رحلة لي جديدة ، في موسم الحج من عامنا هذا ، كانت لقاء مع التاريخ العريق في مهد النبوة وأرض اللبث ، اتصل فيه الحاضر المشهود بالماضي الحي ، في رؤيا ملهمة رقّ فيها الحس والوجدان ، وصفا القلب والضمير . .

فإلى هذه الأرض التي أعطتنا لغتها لساناً معبراً عن جوهر إنسانيتنا الناطقة .
 وإلى بقاعها المباركة التي كانت لبنينا المصطفى عليه الصلاة والسلام مهداً ومبعثاً ،
 والتي تظل أبداً الدهر قبلة أمتنا ومثابة حجاجها ومهوى أفئدتها ،
 أهدى هذا الكتاب ، تحية اعتزاز وولاء . .

عائشة عبد الرحمن

مصر الجديدة

١٣٩٢ : ١٩٧٢

دليل :

- ليل الجزيرة
- «خلق الإنسان . علمه البيان»
- الفجر الصادق ،
- «هُدًى للناس وبيِّنَاتٍ مِنَ الْهُدَى وَالْفُرْقَانِ»
- وراء الأسوار
- «عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَم»
- لقاء مع التاريخ
- «وَأَذِّنْ فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَى كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِنْ كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ» .

(١)

رحلة إلى جزيرة العرب

١٣٧٠ هـ : ١٩٥١ م

- ليل الجزيرة
- الفجر الصادق
- وراء الأسوار
- صور من الجزيرة
- المغتربات
- جارة النبی
- هاجر
- آمنة

في عطلة منتصف العام الجامعي ١٩٥١ م ١٣٧٠ هـ دعانا الشوق إلى أرض المبعث ، فأجمعنا أمرنا على أن نسعى إليها معتمرين زائرين .

وحرص كثير من الأساتذة والطلاب على الاشتراك في الرحلة ، لكن المبلغ الذي حدد لها - خمسة وأربعين جنباً - حال دون كثير منهم ، فلم يبق منا غير عشرة من كليات الآداب والطب والزراعة والتجارة ، بجامعة القاهرة ، فيهم ثلاثة من الأساتذة . ووضّع برنامج الرحلة في حدود ما تسمح به ميزانيتها المتواضعة ، فلم نطمح في أكثر من قضاء العمرة وزيارة مثنى الحبيب المصطفى عليه الصلاة والسلام .

وكان بودّنا - نحن الذين درسنا علوم العربية والإسلام - لو اتسع المجال فامتدت الرحلة إلى ربوع الجزيرة التي عشنا العمر كله ندرس لغتها ونشدو بأشعارها وتمثل بواديها ودروبها ومنازلها ، ونصحب شعراءها ورُجّازها وصعاليكها ، من وراء القرون ذات العدد . . . لكن قصور وسائلنا وزادنا ، أبقي هذه الأمنية بعيدة المثال . . . حتى شاء الله فزار مصر « صاحب السمو الأمير فيصل » وتفضّل فوضع الرحلة تحت رعايته الكريمة ، بعد أن استقبل وفدنا ، أستاذنا أمين الحنّو ، والدكتور محمد عبد السلام العيادي ، والدكتور محمود المنجوري .

وأوفد سموه ، السيد فؤاد شاكر لتوديعنا بمطار القاهرة ، حين بدأنا منه رحلتنا صبح يوم الأحد ، الرابع من شهر فبراير .

حملتنا طائرة سعودية إلى جدة لنجد في استقبالنا فوجاً من كرام الرسميين والعلماء والأدباء ، ولتعلم أننا ضيوف جلالة عاهل الجزيرة « الملك عبد العزيز آل سعود » - طيب الله ثراه -

في أصيل يوم وصولنا ، سعيّا إلى مكة محرمين ، فقضينا العمرة وصلينا العشاء في المسجد الحرام ، ثم نزلنا في دار الضيافة حيث أمضينا أمسية حافلة مع المكيين الكرام ، وفي الصبح زرنا معالم أمّ القرى وطفنا بمشاهدها . ثم عدنا إلى جدة حيث دعينا إلى الغداء بالقصر الملكي في ضيافة سمو الأمير الشاعر « عبد الله الفيصل » .

وطاب لنا مجلسه ، وطاب معه الحوار الخصب الحَيّ في قضايا الشعر العربي والفكر الإسلامي . وذكرنا به شعراءنا الأمراء : من امرئ القيس وعُليّة بنت المهدي وعبد الله بن

المعتر وأنى فراس الحمداني ، إلى ولادة بنت المستكفي والمعتمد بن عباد . هؤلاء الذين أثروا تراثنا الأدبي بعباء شاعريتهم الملهمة ورؤى وجدانهم المرفه ، ولطفوا من وطأة إحساننا بمهانة القولة الشائعة الدائمة : « الشر تجارة العرب » .

• • •

قال سمو الأمير يودعنا :
« أنتم في داركم وبين أهليكم . لا نضع لكم برنامج الرحلة . بل حسبكم أن تختاروا لها ما شئتم ، وعلينا التنفيذ » .
من ثم ، رُفِعت الحدود التي كانت تقيد خطانا فلا تأذن لنا بالتحرك فيما يجاوز منطقة : جدة ، والحرمين . .

وفي دار « السيد الشيخ محمد سرور الصبان » - رحمه الله - رسمنا برنامج رحلتنا في حرية وغبطة : نظير إلى الظهران ، ومنها نوغل في نجد والأحساء ، ونبلغ القطيف والبحرين ، ثم نتجه إلى الرياض فتحى جلالة الملك العاهل ، ومن هناك نأخذ طريقنا الجوى إلى المدينة المنورة لنسعد بزيارة حبيبا المصطفى عليه الصلاة والسلام . .

• • •

رحلتنا إلى الظهران كانت حافلة مثيرة . وفيها أقفنا سبعة أيام نتجول في المنطقة ونسمع قصة الزيت .

وقضينا يوماً في جولة بحرية بالخليج العربي ، بقارب بخارى أعدته لنا إمارة الدمام ، وزودته بطيب الطعام والشراب ، ووسائل الراحة .

ويوماً في « القطيف » على ساحل الخليج ، مع صاحب كرام من الأعيان والشعراء .
وبقي من أسبوعنا هناك خمسة أيام لزيارة دور التعليم ، وآبار الزيت ومعامله ، وميناء الدمام .
متقلين خلال ذلك من غداء في بستان السيد الوزير الشيخ عبد الله السليمان ، إلى عشاء في قصر الإمارة ، ضيوفاً على سمو الأمير الشيخ عبد المحسن بن جلوى ، إلى حفلات سمر واستقبال في دور كرام القوم بالدمام والظهران والخبر .

وسعدت بلمقاء السيدة الكريمة حرم سمو الأمير عبد المحسن التي استقبلتني لترحب في شخصي بسيدات مصر أم الدنيا . وقد شدتني إليها بلطفها وإيناسها ، وجاذبية أصالتها البدوية ، وملاححتها النقية التي لم تشوهها الأصباغ والألوان ، وبساطتها الفطرية التي لم يفسدها زيف وتكلف .

وفى الرياض كان لقاءنا بالعاقل الكبير ، جلالة الملك عبد العزيز . وفى مجلسه بالمرتع ، لم يكن لجلالته حديث إلا عن محنة الأمة بعار إسرائيل ، وقد مدَّ بصره إلى الأفق الشمالى يستوعب أبعاد النكبة فى رؤية ثاقبة . ويحسّ بحدس فراسته الملهمة ، نذر الإعصار العتيّ يوشك أن يوغل فى صميم وجودنا وينتهك أقدس حرماننا .

وتهدج صوت العاقل الشيخ ، إذ يتساءل فى حيرة وأسى :

متى تحتشد الأمة للجهاد ، عسى أن يبذل حياته وأبناءه فدية لشرف أمتنا ؟ وأراه لم يملك دمه ، وهو يتمنى على الله تعالى ، لو أنه أعفاه بالموت من شهود الكارثة . ورحمه من وطأة المعاناة الباهظة لإصر التخاذل وذلل العار .

ودعنا جلالة العاقل - رحمه الله - وفى النفس همٌّ وشجنٌ ، لم يلطف منها ما حظينا به من كرم الوفاة وأنس اللقاء ، كان لى معها أن تلطف جلالته فدعاني « أميرة الصحراء » .

حتى شددنا الرحال إلى المدينة المنورة ، فما حومت طائرتنا فوق أرضها الطيبة ، حتى اشربت لها أرواحنا الظامنة وقلوبنا المشتاقة ، وانجابت عن أفقنا الظلال والغيوم ونحن نستقبل مثنوى الحبيب ، ونطوف بالربوع العاطرة بأنفاسه ، ونسير حيث سارت خطاه .

وعدنا إلى مصر نحمل أجمل ذكرى لأطيب رحلة وأكرم ضيافة . ومضت الأيام ومشاهد الجزيرة تتراءى لى على البعد والقرب ، فتغرينى بأن أحدث قومي عن أرض المعجزات التى يتمنون إليها عقيدة ولساناً ، ويستقبلون المسجد الحرام فيها ، حيثما كانوا .

وسلام عليها : داراً وأهلاً .

ليل الجزيرة

وآية البيان

أَوْقَدَ فَإِنَّ اللَّيْلَ لَيْلٌ قُرٌّ
وَالرَّيْحُ يَا غَلَامُ رِيحٌ صِرٌّ
عَلَّ يَرَى نَارَكَ مِنْ يَمُرٍّ
إِنْ جَلَبَتْ ضَيْفًا فَأَنْتَ حُرٌّ

حاتم الطائي

مَرَّتْ عَلَى صَحَارِهَا الْحَقْبُ وَالدهورُ وَهِيَ قَاحِلَةٌ مَجْدِيَّةٌ ، رَهْبِيَّةٌ مَرهُوبَةٌ . يَحْمُومُ حَوْلَهَا
الْحَيَالُ ثُمَّ يَرْتَدُّ عَنْهَا فَرْعاً مَذْعُوراً ، لَا يَكَادُ يُمَيِّزُ بَيْنَ صَفِيرِ الرِّيحِ فِيهَا وَعَوَاءِ الْوَحُوشِ
وَعَزِيفِ الْجَانِ .

وَتَتَرَامَى الْأَشْبَاحُ لِلسَّارِينَ فِيهَا بَلِيلٌ ، فَيَجْسَمُهَا الْوَهْمُ لَا يَكَادُ يَفْرُقُ فِي الدَّجَى بَيْنَ
كُتُبَانِ الرَّمَالِ وَقَطْعِ الظَّلَامِ ، وَتَلُكُ الْأَشْبَاحُ الَّتِي تَسْرَحُ طَلِيقَةً فِي لَيْلِ الْفَلَاةِ .
وَرَبَّمَا تَمَثَّلَتْ لَهُمُ الْجِنُّ وَقَدْ تَلَبَّسَتْ شَخْوصاً آدَمِيَّةً فِي شِبَاطِينِ الْبَشَرِ ، أَوْ فِي وَحُوشِ
الْفَلَاةِ .

وَإِذْ غَابَ عَنْهُمْ تَفْسِيرُ مَا يَلْقَوْنَ فِي لَيْلِ الصَّحْرَاءِ مِنْ غَرِيبِ الظُّوَاهِرِ وَمِبَاقَاتِ
الْأَخْطَارِ ، رَدُّوْهَا إِلَى هَذِهِ الْكَائِنَاتِ الْحَقِيقَةِ الَّتِي تَتَرَصَّدُ لَهُمْ بَيْنَ كُتُبَانِ الظُّلْمَةِ وَسُودِ
الصَّخُورِ . وَقَدْ تَخَرَّجَ لَهُمْ مِنْ أَحْشَاءِ الْأَرْضِ فِي صُورَةِ ثَعْبَانٍ أَرْقَشَ أَوْ حِيَّةٍ رَقِطَاءَ أَوْ أَرْنَبٍ
وَحَشَى .

وَامْتَلَأَتْ الْجَزِيرَةُ بِأَسَاطِيرَ تَحْكِي مَا يَلْقَاهُ الضَّارِبُونَ فِي نَجْدٍ وَالدَّهْمَاءُ وَالرِّبْعُ الْخَالِي ، مِنْ
أَفَاعِيلِ الْجِنِّ وَالْأَعْيِبِ الْعِيْلَانِ ، فَوَادَتْ مِنْ رَهْبَةِ الْقَفْرِ الْمُوَحِّشِ ، يُتَّقِيهِ السَّارُونَ إِلَّا أَنْ
تُدْفَعَهُمْ ضَرُورَاتُ الْعَيْشِ إِلَى رُكُوبِ مَخَاطِرِهِ وَأَهْوَالِهِ . حَيْثُ يَتَلَمَّسُونَ مَوَاضِعَ أَقْدَامِهِمْ عَلَى
حَذَرٍ ، وَهُمْ يَسْتَعِيدُونَ مِنْ شَرٍّ ، فَمَا يَقُولُ رَاجِزُهُمْ :

قَدْ اسْتَعْدْنَا بِعَظِيمِ الْوَادِي
مِنْ شَرٍّ مَا فِيهِ مِنَ الْعَوَادِي

وَكَانَ مِنْ رَاكِبِي الْقَفْرِ شَعْرَاءُ ، حَفِظَ دِيْوَانَ الشَّعْرِ الْجَاهِلِيَّ لِبَعْضِهِمْ مَغَامِرَاتُ وَمَوَاقِفُ
مَعَ الْجِنِّ ، مِنْ اخْتِرَاعِ الْحَيَالِ أَوْ مِنْ أَصْغَاثِ الْأَحْلَامِ وَتَجَسُّمِ الْوَهْمِ ، كَقَوْلِ شَاعِرٍ مِنْهُمْ
يَصِفُ جَنًّا نَزَلُوا بِهِ حِينَ أَوْقَدَ نَارَهُ فِي لَيْلِ الْقَفْرِ :

أَتَوْا نَارِي فَقُلْتُ : مَنْونٌ ؟ قَالُوا سَرَاءُ الْجِنِّ ، قُلْتُ عِمُّوْا ظِلَامَا
وَقُلْتُ : إِلَى الطَّعَامِ ، فَقَالَ مِنْهُمْ زَعِيمٌ : نَحْسُدُ الْإِنْسَ الطَّعَامَا
لَقَدْ فَضَّلْتُمُ بِالْأَكْلِ عَنَا وَلَكِنْ ذَاكَ يُعْقِبُكُمْ سَقَامَا

وقال الشاعر الصعلوك « تأبط شراً »^(١) يفاخر بمغامراته مع الجن :
 أنا الذى نكح الغيلان فى بلدٍ ما طلّ فيه سيماكى ولا جادا
 ومنهم من زعم أنه اتخذ له فى القفر مطايا من الجن ، مشخصة فى أرناب وحشية :
 وكلّ المطايا قد ركبنا فلم نجد ألدّ وأشهى من ركوب الأرناب
 وكذلك زعموا أن الجن ناحت على قبر « حاتم الطائي »^(٢) ، لما كان فى حياته يوقد من
 نار القرى فى ليل القلاة ، فيؤنس الضاربين فى مجاهلها ويمجدون لديها ملاذاً وقرى ،
 وحفظوا له قوله لغلامه :

أَوْقَدْ فَإِنَّ اللَّيْلُ لَيْلٌ قُرُ
 وَالرَّيْحُ يَا غِلَامُ رِيحٌ صِرُ
 عَلٌّ يَرَى نَارَكَ مَنْ يَمُرُ
 إِنْ جَلَبَتْ ضَيْفًا فَأَنْتَ حُرُ

فيروى عن « ألى عبيدة ، معمر بن المثنى »^(٣) عن رجل من بنى طيى ، قال :
 [رأيت قبر حاتم الطائي بَقَّةً - موضع بديار بنى طيى - وإذا قُدُورٌ عظيمة من
 أحجار مُكفَّات ناحية القبر ، وهى التى كان حاتم يطعم فيها الناس . وعن يمين قبره أربع
 جُوارٍ من حجارة ، وعن يساره كذلك . ولهن شعورٌ منشورة كالناتحات عليه ، لم يُرَ مثَلُ
 بياض أجسامهن وجمال وجوههن ؛ مثلنهن الجن على قبره : فإذا هدأت العيون ارتفعت
 أصوات الجن بالنياحة عليه إلى طلوع الفجر ، فحينئذ يسكنن .
 قال : وربما مرّ المارء فيراهن فيميل إليهن ، فإذا قاربهن رآهن أحجاراً] .

وليس هذا بعجيب من تصورات الخيال وتهاويل الرؤى ، وقد تسمع مثله فى مناطق من
 الغرب الحديث^(٤) وقد راجت هذه الحكايات وأمثالها فى أنحاء الجزيرة ، فلم ينج من التأثر

(١) ثابت بن جابر ، انظره فى (الشعر والشعراء) لابن قتيبة ، و (المضليات) للضبي .

(٢) حاتم بن عبد الله بن سعد الطائي ، الشاعر الجواد المشهور فى المجاهلة بالكرم والسخاء . انظره فى (الشعر
 والشعراء) .

(٣) من أئمة علماء العربية فى القرن الثانى للهجرة انظره فى (زهرة الألبان) و (أخبار التحيين) .

(٤) أذكر أنى شهدت فى جبال انسا العليا ، صخرة من عجب تحت الطبيعة ، لا يشك الرأى من بعيد أنها جسم
 امرأة نائمة . وصمت القوم هناك بمكان لى ، فى ليلة ساهرة لشهود القمر الصناعى ، أسطورة حب نسجها الخيال لهذه
 الأميرة النائمة) .

بها شاعر شيخ كالتابفة الديباني ، وهو يعيش في بلاط النعمان بن المنذر بإمارة الحيرة . كالذي قال في شكواه من ذوى الضغن عليه ، في قصيدته الرائية التي ذكر فيها قصة الحيرة « ذات الصفا » وما لقيت من عذر خليلي لها من الإنس^(١) :

في ذاكرة الزمن ، كانت تعيش مرويّات عن حضارات الأقوام وممالك من العرب البائدة ، قص علينا القرآن الكريم من خبرهم ما هو موضع عبرة ، مثل :

● عاد : « إرم ذات العماد . التي لم يُخلق مثلها في البلاد . »
كان مترهم بالأحقاف ، بعث الله فيهم هوداً رسولاً ونذيراً ، فكذبوه وعصوا واستكبروا في الأرض بغير الحق . فأرسل عليهم الريح العقيم « تدمر كل شيء بأمر ربها فأصبحوا لا يرى إلا مساكنهم » .

● وثمود الذين جابوا الصخر بالواد « دعاهم نبهم صالح إلى عبادة الله فكذبوه ، وأخذ الذين ظلموا الصيحة فأصبحوا في ديارهم جاثمين كأن لم يكنوا فيها »^(٢) .

● وسبأ الذين كان لهم في مسكنهم آية : « جنتان عن يمين وشمال » وقد ازدهرت الحضارة في مملكة سبأ بالجنوب ، حتى غرّتهم الدنيا وأفسدهم البطر والترف ، واجتاحهم سيل العرم ويدّلوا بجنتهم « جنتين ذواتي أكلٍ حَمَطٍ وأثلٍ وشيء من مبدّر قليل »^(٣) . ونزلت قبائل في نجران والجوف اليمنى وحضرموت وساحل عمان . ونزحت أخرى ، من عرب الجنوب القحطانية ، في هجرات جماعية قديمة فاستقرت في منازل عمّرتها ، ومنها ما خالط قبائل من عرب الشمال كقبيلة كندة التي ظهرت على بني أسد ، وجرهم التي نزلت بمكة وأصهر إليها إسماعيل ، جد العرب العدنانية .

ونزل بنو قبيلة ، ولُدَّ عمرو بن عامر : آخر ملوك سبأ ، في شمال الحجاز فعمرُوا يثرب

(١) مطلع القصيدة :

ألا أبلغها ذبيان عني رسالة فقد أصبحت عن منج الحق جائره
انظرها في (ديوانه) وفي (العقد الثمين) .

(٢) انظر الآيات في عاد وثمود ، في سور :

الفجر ، هود ، الأحقاف ، القمر ، الحاقة ، التل ، الذاريات ، الأعراف ، فصلت ، إبراهيم ، النجم ، الحج . وما بين الأقواس هنا ، هو من نص كلمات الذكر الحكيم .

(٣) انظر الآيات في سورتي (سبأ ، والنمل) .

وهم الأوس والخزرج^(١).

ونزل إخوانهم « بنو جفنة بن غسان » بأرض الشام ، فأسسوا بها إمارتهم العربية على حدود الروم . كما نزل المناذرة بالحيرة ، وقامت إمارتهم على حدود الفرس . وفي الوادي الأجرد ، بين جبال الحجاز الصخرية ، كانت « مكة » أم القرى العربية ، معبدًا لله تعالى من قديم الحقب ، ثم آلت إلى مركز للعبادة الوثنية : دين القبائل العربية في شتى أنحاء الجزيرة .

وقد طال عليها الليل ، ولم تستطع طقوس الوثنية على كثافتها وغلظها ، أن تحجب سنًا البيت العتيق ، أقدم بيت عبدٍ فيه الله على الأرض ، ولا أن تغض من حرمة التي لم يَزِدْها كُرُّ الغداة ومُرُّ العشي إلا عراقًا ورسوخًا .

كما لم يستطع الضجيج الصاخب في مواسم الحج إلى مكة وملتي القبائل في أسواقها بمُكاظ والمِجَنَّة وذى المجاز ، أن يطوى ذكريات التاريخ الديني لأم القرى ، من يوم أن رفع « إبراهيم القواعد » من البيت وإسماعيل « وطهره » للطائفتين والعاكفين والرُكْع السجود . وتابعت الحقب والدهور ، وهذا البيت العتيق حرم آمن ، ومثابة حج القبائل وموضع تقديسها . . .

وبقيت البيد وراء هذه الأطراف المعمورة والمنازل الآهلة والحواضر من القرى ، في عزلتها الرهبة المروية ، لا تجتازها القوافل في رحلاتها للحج والتجارة ، إلا بحماية من العرب البدو سادة الصحراء ، ومع أدلاء منهم خبراء بمجاهل الدروب وعمياء المسالك في القفر الموحش .

وظل للصحراء سلطانها المادى والمعنوى على الحضريين ، تفرض عليهم تفسيرها للظواهر والغوائل ، وتسيطر على تصوراتهم بخيالها الطلق ورؤيتها للكون والحياة ، وتشحن وجدانهم بما لديها من أسرار القفر .

وكما رَدَّ الضاريون بالفلاة غوائل الطريق إلى ما جسَّه الوهم من أفاعيل الغيلان ، شقَّ عليهم وعلى الحضري في القرى والإمارات ، تحليل الإلهام الشعري وفراصة الكهان ودهاء السحرة ، فردُّوها إلى أصحاب من الجن يتصل الكاهن والساحر بها في عالمها السفلى

(١) انظر تفصيل ذلك كله في : كتاب « تاريخ مكة » للأزرقى وكتاب « وفاء الوفا بأخبار دار المصطفى »

الحق ، وإلى توابع منها تأتى الشعراء من وادى عبقر ، فتلقي إليهم عبقرى النغم وروائع القصيد . قال راجزهم :

إني وإن كنتُ صغيرَ السنِّ
وكان في العينِ نبؤٌ عني
فإن شيطاني أُميرُ الجنِّ
يذهب بي في الشعر كلَّ فنِّ

وقال الشاعر الخزرجي المخضرم « حسان بن ثابت » من شعر جاهليته يثيرب :
ولى صاحبٌ من بنى الشَّيبِبا نِ فطوراً أقول وطوراً هوةً

وخلفوا رؤاهم وأحلامهم وهواجسهم في وجدان الجزيرة ، ميراثاً يتلقاه خلفٌ عن سلف ، وتراثاً يتناقله الرواة جيلاً بعد جيل ، لم يُقلَّتْ من تأثيره شعراء إسلاميون من بدو وحضر ، وفيهم مولدون ولِدُوا وعاشوا في الأقطار التي فتحها الإسلام ، في بيئات بعيدة أقصى البعد عن بوادى الجزيرة وقلواتها .

قال « ذو الرمة » الشاعر الإسلامي البدوي ^(١) :

ورملي لعزفِ الجنِّ في عُقداته هريُّ كضرابِ المغنين بالطليل
وقال « جرّانُ العودِ النخيري » ^(٢) يصف إحدى لياليه :
حَمَلَنَ جِرانُ العودِ حتّى وضَعته بعلياء في أرجائها الجنُّ تعزفُ
وقلنَ تمتعْ ليلةَ النَّأى هذه فإنك مرجوم غداً أو مُسيِّفُ
وقال « أبو النجم » ^(٣) مرتبجاً :

إني وكلُّ شاعر من البشرِ
شيطانه أنثى وشيطاني ذكْرُ

وقد أضافت هذه الأجيال الإسلامية إلى تراث الشعر الجاهلي من شطحات خيالها وتصورات ومهما ، ما وصل إلى القرن الرابع الهجري ، فجمع منه « المرزباني » كتابه في

(١) غيلان بن عتبة . ديوانه مطبوع في (المتى) ببغداد .

(٢) عامر بن الحارث النخيري . ديوانه مطبوع في دار الكتب المصرية .

(٣) الفضل بن قدامة ، من أشهر الرجاز في العصر الأموي . انظره في : (الشعر والشعراء ، ومعجم الشعراء) .

(أشعار الجن)^(١).

وفي القرن الخامس الهجري ، كان الشاعر الأندلسي « ابن شهيد » في أقصى المغرب ، يصوغ من رؤاه مباراة شعرية ملهمة بين تابعه وتوابع مقدّمى الشعراء وزوابع مشهورى الكتاب ، وقد أفحمهم جميعاً^(٢).

حين كان « أبو العلاء المعرى » فى محبسه بمجرة النعمان بالمشرق ، يملئ فى (رسالة الغفران) ما تمثله من مشهد لقاء بشاعر من الجنّ المؤمنين ، وينطق على لسانه بقصيدتين مطولتين ، فيها عجائب وغرائب مما رسب فى عقلية بيته من تصورات لعالم الجن^(٣).

• • •

لكن بادية الجزيرة ، هى التى أعطت الأجيال من العرب ، كذلك ، سليقتها اللغوية النقية ، وبيانها الذى طوعته للتعبير عن وجدانها ورؤاها ومنطقها .

أعطينا العربية الفصحى ، بعد أن صقلتها على المدى الطويل بحسبها المرفه ، فأوصلتها إلى أواخر الجاهلية : قد أهملت الحوشى والغريب والثقيل ، وما تنافر من حروف اللفظ أو كلمات الجملة . وهذبت صيغها بالإعلال والإبدال والقّلب والإدغام والحذف ، واستقرت قواعد مطردة للتأنيث والتذكير ، وللأفراد والتثنية والجمع ، والتعريف والتذكير . وتصرفت فى المادة اللغوية للملاحظ من فروق الدلالات ، وتصرفت فى الفعل لضبط زمن وقوع الحدث ، وتمييز المعلوم من المجهول . واستخدمت الضمائر وأسماء الإشارات والأسماء الموصولة وحروف المعاني ، ببالغ الدقة والإحكام . كما حكمت المعاني بصيغ المشتقات ونسق الألفاظ فى الجمل ، وسياق العبارة وعلامات الإعراب .

وتوسعت فى المجاز تنمو وتلبي حاجات الحياة ، فنقلت الألفاظ من استعمالها الحسى إلى المعنوى ، وتطورت أساليبها من قديم ، فخرجت عن معانيها فى أصل الاستعمال اللغوى . إلى معانٍ بيانية وأساليب بلاغية لملاحظ فنية جالية . كالمعروف من خروج أساليب الخبر من دلالتها الأصلية الأولى إلى الدعاء والاسترحام والتفجع والشكوى . وخروج أساليب الأمر

(١) ذكره ابن التديم فى (الفهرست) فى مصنفات أبى عبد الله الرزبانى ، الحراسانى الأصل البغدادى المولد والوفاة (٢٩٧ - ٣٨٤ هـ) . وذكره كذلك أبو العلاء فى (رسالة الغفران) صفحة ٢٩١ طبع الدخاثر .

(٢) انظر (التوابع والزوابع) لابن شهيد الأندلسى ، فى كتاب النخبة لابن بسام . ط جامعة القاهرة .

(٣) انظر المشهد فى لقاء ابن القارح بالشاعر الجنى أبى هدرش ، وقصيدتى أبى العلاء على لسانه ، فى (رسالة الغفران) ط الدخاثر : دار المعارف القاهرة .

والنهي والاستفهام ، إلى الزجر والتعجب والتقرير والإلزام أو الجحد والإنكار ، والعدول بالتعبير عن أصل استعماله في اللغة عن طريق الاستعارة أو المجاز أو الكناية والرمز .
ووصل إلينا الشعر الجاهلي بعد أن مر بمراحل طفولته التي غابت عنا ، مُحَكَّم الإيقاع متنسق النغم سخي الإلهام . تمضي القصيدة منه حتى تجاوز أكثر من مائة بيت عدداً ، دون خلل في نسق النظم وضوابط الإيقاع .

وبلغت العربية من ذلك كله ، مستوى عالياً من دقة الدلالة وإحكام الصياغة ، استطاع معه العلماء في عصر التدوين ، أن يستخلصوا من تراث الفصحى قواعد الصرف والنحو والاشتقاق والوضع ، وأحكام البلاغة وأساليب البيان وضوابط العروض .
وفي الجاهلية ، حددت العربية من قديم موقفها من الدخيل : لم ترفضه رفضاً باتاً في جهود وعناد ، ولم تطلقه دون قيد يفرّجها ويمسح أصلاتها .

فبقدر ما توسعت في الاشتقاق والمجاز ، ضيّقت باب الأخذ من الألسنة التي خالطتها بطريقة أو بأخرى ، صوناً للسانها . فاستغنت إلى أقصى المدى بتطويع الألفاظ الفصحى لكي تؤدي معاني ما احتاجت إليه ، أو ما استعملته وانتخبته من الألفاظ الأعجمية . ولم تلجأ إلى استعارة الدخيل إلا عند الضرورة القصوى ، مع إخضاعه للصيغ العربية ، إما بإحلاقه بأقرب صيغ الفصحى إليه ، أو بتغيير طريقة نطقه ، إشعاراً بتعريبه . وقد استطاع علماء العربية في القرن الثاني للهجرة ، وما بعده ، أن يستخلصوا قواعد لمعرفة المعرب والدخيل ، تشهد بأن الأمر لم يترك لقوضى العشوائية والارتجال ، بل خضع لنهج واضح التزمته العربية فيما تأخذ من الألسنة التي خالطتها^(١) .

ثم كان أن مارست العربية في جاهليتها المعروفة لنا تاريخاً وتراثاً ، حركة تطور باللغة الأهمية ، إذ اتجهت إلى استصفاء لغة مشتركة ، شبه رسمية ، تلتقي بها القبائل على اختلاف لهجاتها ، فيما يجاوز النطاق المحدود للقبيلة . وقد اختيرت لغة قريش ، بحكم موضعها من أم القرى والبيت العتيق ، وبما أتيح لها على المدى الطويل من انتقاء مختار الألفاظ والصيغ من لغات القبائل العربية الوافدة عليها في مواسم الحج الدورية التي كانت في الوقت نفسه مواسم أدبية شعرية ، وأسواق تبادل لغوي وتجاري . قال « ابن فارس » في كتابه (الصاحبي) في فقه اللغة :

(١) انظر : الزهر في علوم اللغة السيوطي . ومعه كتابي (لغتنا والحياة) : المعارف .

[كانت وفود العرب من حجاجها وغيرهم يفلدون إلى مكة للحج ويتحاضرون إلى قريش في دارهم . وكانت قريش مع فصاحتها وحسن لغاتها ورقة ألسنتها ، إذا أتتهم الوفود من العرب تخيروا من كلامهم وأشعارهم أحسن لغاتهم وأصنى كلامهم ، فاجتمع ما تخيروا من تلك اللغات إلى سلاتقهم التي طبعوا عليها فصاروا بذلك أفصح العرب] .

ونقل جلال الدين السيوطي في كتابه (المزهرة) قول الفارابي :
[كانت قريش أجود العرب انتقاءً للأفصح من الألفاظ وأسهلها على اللسان عند النطق ، وأحسنها مسموعاً وإبانة عما في النفس]

ونجلى آية الرحمن في الإنسان علمه البيان ، في لغة بدوية لقوم أميين ، ما تزال تبه علماء اللغة العصريين ، بما كان لها في جاهليتها الأمية من حس مرهف وذوق مصفى ونهج أصيل ، تسامى بها أرقى لغات العالم المتمدن ، في دقة الدلالة وإحكام الصياغة واطراد قواعد التصرف ، وخصب المجاز وعلو البيان . .

فما آذن ليل الجاهلية بمغيب ، حتى كانت هذه اللغة القصصى أهلاً لشرف نزول المعجزة القرآنية بها . قادرة على أن تواجه أكبر حركة تحول لغوى عرفه التاريخ منذ كان ، بتعرب الشعوب التي دخلت في الإسلام بعد الفتوح الكبرى . .

فلتتمهل لنجلى نور الفجر الصادق الذى بلغت فيه آية البيان ذروة الإعجاز ، وبدأت به لغة العرب حياة رحية الآفاق بعيدة الآماد ، متجددة الطاقة مباركة العطاء . .

الفَجْرُ الصادق

«هُدًى للناس وبيناتٍ من الهدى والفرقان»

«هو الذى بَعَثَ فى الأميين رسولا منهم يَتْلُو
عليهم آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ
وَالْحِكْمَةَ ، وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ
مبين» .

[سورة الجمعة] صدق الله العظيم

ذات ليلة من أخريات رمضان ، بعد ميلاد المسيح عليه السلام بسنة قرون وعشر سنين ، لَفَتْ أُمُّ الْقُرَى صَمْتُ لَأَغْب مَكْدُود ، لَا يُسْمَعُ فِيهِ سَوَى أَنْفَاسِ اللَّيْلِ مَخْطَلَةٌ بِمِهْمَةٍ صَلَوَاتٍ وَثِيَّةٍ ، كَانَتْ مَاتِرَالٌ تَسْلُلُ مِنَ الْبَيْتِ الْعَتِيقِ .

وَقَرَّ رَمَضَانُ لَمْ يَبْزُغْ بَعْدَ ، فَلَيْسَ عَلَى الْأَفْقِ الْمُعْتَمُ سَوَى ضَوْءِ شَاحِبِ نَحِيلٍ ، مِنْ نَجُومٍ تَجْعِبُهَا عَنْ مَكَّةَ جِبَالِهَا الصَّخْرِيَّةِ الشَّمْسِ .

وَنَامَتِ الدُّنْيَا لَا تَلْقَى بِالْأُ إِلَى « مُحَمَّدِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَبْدِ الْمَطْلَبِ الْهَاشِمِيِّ الْقُرَشِيِّ » إِذْ أَوَى إِلَى غَارٍ هُنَاكَ مُسْتَعْرِقًا فِي تَأْمَلَاتِهِ ، يَلْتَمِسُ فِي الْعَتَمَةِ الدَّاجِيَةِ شِعَاعًا مِنْ نُورِ الْحَقِّ وَيَنْشُدُ فِي خُلُوتِهِ قَبْسًا مِنْ هُدًى ، وَخَوَاطِرُهُ تَحُومُ حَوْلَ مَقَامِ إِبْرَاهِيمَ فِي الْبَيْتِ الَّذِي آلَ مَعَ الزَّمَنِ ، إِلَى مَثْوًى لِأَوْتَانٍ مَمْسُوخَةٍ وَأَصْنَامٍ شَوْهَاءٍ بِلِهَاءٍ .

وَالتَّارِيخُ مَشْغُولٌ عَنْ هَذَا الْأُمِّيِّ الْهَاشِمِيِّ ، بِأَحْدَاثِ جِسَامٍ خَارِجِ الْجَزِيرَةِ ، مُشْدُودِ الْبَصَرِ إِلَى نَذْرِ الْإِنْهَارِ فِي عَالَمٍ يَرِيدُ أَنْ يَنْقُضَ . يَتَابِعُ الْحَوَالَتِ الْأَخِيرَةَ لِلصَّرَاعِ بَيْنَ قَطْبِي ذَلِكَ الْعَالَمِ الْقَدِيمِ ، حَيْثُ كَانَتْ دَوْلَتَا الْفَرَسِ وَالرُّومَانِ تَخُوضَانِ حَرْبًا طَاحِنَةً عَلَى مَرَاكِرِ الْقُوَى وَالنَّفُوذِ ، وَاحِدَى الدَّوْلَتَيْنِ قَدْ أَعْثَتْ نَارَ الْخُجُوسَةِ بِصَرَاهَا وَبَصِيرَتَهَا فَمَا عَادَ يَعْنِيهَا سَوَى أَنْ تَجْعَلَ مِنْ سَاحَةِ الشَّرْقِ كُلِّهِ مَعْبَدًا لِتِلْكَ النَّارِ الْعَقِيمِ ، تَصْلَاهَا شَعُوبُهُ بِالْقَسْرِ وَالْإِكْرَاهِ .

وَالْأُخْرَى قَدْ أَغْثَتْهَا جِرَاحُ الْحَرْبِ وَهَدَّتْهَا أَمْرَاضُ الشَّيْخُوخَةِ ، وَاسْتَرْزَفَتْ بِقَايَا قُوَّتِهَا فَتْنَةُ الصَّرَاعِ الطَّائِفِي بَيْنَ الْقَاتِلِينَ بِنَاسُوتِيَةِ السَّيِّدِ الْمَسِيحِ وَالْقَاتِلِينَ بِلَاهُوتِيَةِ ، فَتَهَاوَى النَّسْرُ الرُّومَانِي عَلَى الْأَرْضِ يَجْمَحُ عَلَى صُدُورِ خَلْقِ اللَّهِ وَيَكْتُمُ أَنْفَاسَهُمْ ، وَيَتَسَلَطُ عَلَى مُسْتَعْمَرَاتِهِمْ بِالْعُسْفِ وَالطَّغْيَانِ وَالْإِضْطِهَادِ ، فِي مُحَاوَلَةٍ تَسْتَبِقُ لَهُ مِنَ الْهَيْبَةِ مَا يَسْتَرْوِهْنَهُ ، وَيَعُوضُهُ عَنْ قَوَاهِ الْمُسْتَرْزَفَةِ وَبِحَدِّهِ الْأَقْلَ .

وَبَيْنَ هَؤُلَاءِ وَهَؤُلَاءِ ، فَلَوْلَ مِنْ عَصَابَاتِ يَهُودٍ ، تَرَبَّصُ بِهِمْ جَمِيعًا الدَّوَائِرُ لَثَرَتْ مُلْكُهُمْ ، وَتَجْعَلَ مِنَ الدُّنْيَا مَعْبَدًا لِلْوُثَنِ الْأَصْفَرِ ، يَسْتَأْثِرُ سِدَّتُهُ الْيَهُودَ بِمِفَاتِيحِهِ . وَيَتَوَلَّى أَحْبَابَهُمْ شَرْحَ طَقُوسِ عِبَادَتِهِ ، بَعْدَ أَنْ عَقَرُوا الْمُسُوِيَّةَ وَكَفَرُوا بِرَسُولِهَا ، وَكَادُوا لِلْمَسِيحِيَّةِ وَاتَّخَذُوا بَنِيهَا ، وَحَرَفُوا كَلِمَاتِ كِتَابِهِمْ عَنْ مَوَاضِعِهَا ، لِتَلْبِي مَا تَأْصُلُ فِي خَلْقَتِهِمْ مِنْ شَرٍّ وَخَبْثٍ وَجَشَعٍ وَأَثَرَةٍ ، وَتَسْتَجِيبُ لِمَا فِي طَبِيعَتِهِمْ مِنْ قُسْوَةٍ وَحَقْدٍ وَعَدَاوَةٍ لِلْبَشَرِ .

وغير بعيد من غار حراء الذى شُغِلَتْ عنه الدنيا والتاريخ ، هجعت مكة تجتر ذكريات
بجدها الغابر وقد طوته وثنية ضالة عمياء ، وتساورها من حين إلى حين رجفة من قلقِ
الوحي ، لا تلبث أن تهمد تحت وطأة الكابوس الجاثم .

ونامت قريش ، لا تحسب حساباً لهذا الهاشمى المختل في غار حراء ، وقد ألفت أن
تراه ينسحب إليه من ضجيج المجتمع المكى ، عازفاً عن تلك الأوثان التى يعبدها قومه
لأنهم وجدوا آباءهم لها عابدين ، وماذا على القوم أن عزف محمد بن عبد الله عن
أوثانهم ورفض أن يعبدها مع الله أو يعبد الله فيها ؟ ! كذلك فعل مثل محمد من الخفاء ،
ليس عددهم بالذى يدخل في الحساب بزيادة أو نقصان ، في زحام أفواج الحجيج من
قبائل العرب جميعاً ، يتהלون إلى مكة من كل فج عميق ، ليطوفوا بأوثانهم في الكعبة
ويؤدوا طقوس عبادتها ، موسماً بعد موسم ، وجيلاً من بعد جيل . .

وأغل الليل قبل أن يطلع فجر هذه الليلة من رمضان ، وينشر نوره على القمم
والسفوح ، والبطاح والقيعان والأودية . .
ومع نور الفجر البازغ من الليلة المباركة ، تجلى الوحي للمختل في الغار ، وألقى إليه
كلمة الله : « اقرأ » .

وما كان محمد يقارئ ، وما كان يتلو من كتاب ولا يحطه يمينه ، من قبل أن يتلقى
آيات الوحي الأولى :

« اقرأ باسم ربك الذى خلق » خلق الإنسان من علق . اقرأ وربك الأكرم . الذى
عَلَّمَ بالقلم . عَلَّمَ الإنسان ما لم يعلم .

وبدأ تاريخ جديد :

الرجل الذى سرى في الليل إلى غار حراء على مألوف عاداته منذ أنكر موضع الأصنام
في البيت الحرام ، وأيقن أن حياة الناس لا يمكن أن تمضى هكذا على سفَه وضلال . .
خرج مع الفجر الصادق من الغار ، نبياً مبعوثاً بختام رسالات الله .

والكلمات الأولى التى تلقاها في ليلة القدر هذه من وحى ربه ، كانت مستهل كتاب
معجز ، وآية بشر رسول ، ولواء عقيدة وجهت التاريخ وحررت الإنسان ، وصنعت أمة
وقادت حضارة .

من الغار خرج المصطفى ، والنور ملء قلبه ، والكلمات ملء مسمعه ، وانجبت به خطاه نحو داره في جوار الحرم ، والكون من حوله ساج خاشع ، وعلى الأفق نور الفجر الصادق ينسخ ظلمات ليل طال ، ويوشح البيت العتيق يسناً وضاء ، يكشف عما تكلس في حرمه من أصنام ، قبدو على حقيقتها العارية ، صماء بلهاء . وقد كان لها من ظلام الليل ستر كثيف يخدع البصر والبصيرة . ويزيف الرؤية .

وتلا المصطفى كلمات ربه في قومه الأمين الذين لم يعرف التاريخ لهم كتاباً قط من قبل المبعث . وإن عرف فيهم صلابة البداوة ونخوة الطبيعة التي لم تفسدها أمراض المدينة وآفات الترف . ودعا إلى التوحيد ، جُعاة الوثنيين الذين بعد عهدهم بالحنيفية ، وطال عليهم الأمد وهم عاكفون على أوثان وأصنام يتلقفونها ويعيدون خالقهم فيها ، تجسداً لما شق عليهم إدراكه من الجلال الأسنى والحق الخالص والكمال الأسمى والمثل الأعلى .

على نور الفجر الصادق ، عرف الأميون طريقهم وخرجوا من ظلمات الجاهلية ، فما مضى على المبعث عشرون عاماً حتى كان عرب الجزيرة كلهم قد نبذوا الأوثان وحطموا الأصنام ، وعبدوا الله وحده مخلصين له الدين حنفاء .

ومن هذى القرآن تعلم الأميون الكتاب والحكمة ، فأمنوا بإله واحد أحد ، فرد صمد ، لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد ، لا تدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار . . بعد أقل من نصف قرن ، من ليلة القدر المباركة ، كان هؤلاء الأميون الذين تعلموا الكتاب والحكمة ، يطفئون نار الجوسية ، ويطلقون سحر الكفرة الفجرة . ويكون صروح الطاغوت ، وينطلقون في الآفاق من مشرق ومغرب ، يحملون إلى الدنيا عقيدة التوحيد المحض والتنزيه المطلق ، وينشرون في العالم الكتاب والحكمة . . ويبلغون البشرية رسالتهم التي ناط بها القرآن أمته ، في آياته المحكمات :

« لا إكراه في الدين قد تبين الرشد من الغي » ، فمن يكفر بالطاغوت ويؤمن بالله فقد استمسك بالعروة الوثقى لا انفصام لها ، والله سميع عليم » .

[البقرة : ٢٥٦]

« الذين إن مكناهم في الأرض أقاموا الصلاة وآتوا الزكاة وأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر ، ولله عاقبة الأمور » .

[الحج : ٤١]

« وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ ، وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ » .

[آل عمران : ١٠٤]

« كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ » .

[آل عمران : ١١٠]

« يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا ، إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ ، إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ » .

[الحجرات : ١٣]

« فَأَمَّا الزُّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً وَأَمَّا مَا يَنْفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ ، كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ » .

[الرعد : ١٧]

« وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ » .

[الأنعام : ٤٣]

« إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ » .

[فاطر : ٢٨]

وبدأت أمة القرآن من القرن الثاني للهجرة ، الثامن للميلاد المسيحي ، تقود البشرية لتخرجها من ظلمات الجهالة والامية ، وتحررها من عقدة الخصومة بين الدين والعلم ، بما منَّ الله به عليها من عزة التوحيد وكرامة العقل . فانطلق علماء الدولة الإسلامية في عصر قيادتها للحضارة ، آمنين من إصر الكهنوتية مطمئنين إلى تأييد عقيدتهم للعلم وإكبارها العقل الذي هو من جوهر الإنسانية الناطقة ، إذا تعطل أو جمد ، مُسيخ الإنسان وهبط إلى دونية البهيم العجماء :

« إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ الصُّمُّ الْبُكْمُ الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ » .

« لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لَا يَسْمَعُونَ بِهَا ، أُولَئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ ، أُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ » .

وما ارتاب علماء الإسلام في أن العلم في عقيدتهم فريضة وعبادة وجهاد ، وهم ينظرون في الظواهر الكونية بعقلية جديدة متحررة ، لاجتلاء عجيب السنن الكونية

الحكمة ، ويمارسون التجارب العلمية العملية ، لتحقيق آية الله فيها سحر للإنسان : « ما في السموات وما في الأرض جميعاً » فقدّموا جديداً أصيلاً من العلوم الطبيعية والرياضية والفلسفة ، ودخلوا التاريخ العلمى رواداً لآفاق لم يستشرفها أحدٌ قبلهم ، فكانوا هم الذين أصلوا المنهج التجريبي الاستقرائي ، وأعطوا الإنسانية أوليات الكتب العلمية في الطبيعيات والرياضيات ، وقدموا معها مخترعاتهم من أجهزة التجربة العملية والرصد الفلكي والخبرة الجغرافية والملاحية . وبفضلهم تم نقل العلوم إلى مجال البحث التجريبي الذي لم تعرفه الفلسفة اليونانية بمنهجها العقلي النظري .

وكان رصيد خيرة العلماء المسلمين وتجربتهم وتراثهم العلمى ، قاعدة الأساس لعصر العلم الحديث الذى حقق تقدماً باهراً فى الغرب الأوربي ، انطلاقةً من عصر الإحياء (الرينسانس) الذى قام على تراث الحضارة الإسلامية وتزود بعطائها . .

شُرِفَت العربية بتزول القرآن بها ، كتاباً عربياً مبیناً : معجزة بشر رسول ، يأكل الطعام ويمشى فى الأسواق . يفرض إعجازه على العرب والفصحى لغتهم سليقة وفطرة . والبيان طوع ألسنتهم .

وكتبت حياة جديدة رحبة الآفاق ، لهذه العربية التى ظلت آباءً إلى ليلة القدر . منزلة فى بواديها وقراها ، محصورة فى نطاق أهلها العرب الأميين : من القرآن الكريم . تلقت العربية زاداً سخياً مباركاً من أساليب البيان المعجز . ومدداً من الدلالات الإسلامية التى استحدثها القرآن لألفاظٍ من عصرها الجاهلى . كالإيمان والكفر ، والهدى والضلال ، والبصر والعمى ، والساعة والقيامة والحساب . والجنة والنار . . .

ثم كان التحول الفذّ . الذى لم يعرف له التاريخ مثيلاً قط . وهيات أن يعرف مثله أبداً :

شعوب العالم القديم ، كانت قد خضعت على طول ألف عام ، للاستعمار الأجنبى . وقد حاول الغزاة من رومان وفرنس ويونان ، أن يفرضوا عليها عقائدهم وألسنتهم وقومياتهم بالقسر والإكراه والإرهاب ، فواجهتها الشعوب بالتحدى والرفض . بحيث ظلت على المدى الطويل ، عقائد أجنبى مستعمر . ولغة دواوين وثقافة دخيل . يرتبن بقاؤها بما يحمىها من سلطة الحكم وجبروت الاحتلال :

(بوزع مجاناً ولا بيع)

من عجب أنها ماكادت تصغى إلى دعوة الإسلام من حَكَلته الفاتحين ، حتى استجابت له طواعية ، وحملت لواء دينها الجديد داعية إليه مجاهدة في سبيله ، مشاركة في حركة المد الكبير للفتوح الإسلامية ، حتى بلغت بها أقاصى المشرق والمغرب . وبذلت كل ماضيتها لتبدأ تاريخها الإسلامى ، أمة واحدة .

وفى نصف قرن فحسب ، كانت هذه الشعوب قد هجرت ألسنتها الأولى ، واختارت لغة القرآن لساناً لها ، وهى التى عصيت الزمن الطويل على المستعمرين الأجانب ، فضوا عنها لم يخلفوا من بعدهم لغة لاتينية أو فارسية أو رومانية !

وسارت العربية مع القرآن الكريم حيث سار ، فإذا تراث الجاهلية من قصائد البدو وأراجيز الرعاة وأحاديث الفتيان فى مسامر القرى ودروب الصحراء ، وموقف الشعراء فى المواسم والأسواق ؛ تغدو تراثاً غالياً يلتسمه الرواة الإسلاميون من بوادى الجزيرة التى احتفظت ببقاء عريبتها ، ويشدون من أجله الرجال إلى منازل القبائل ، ليأخذوا من أفواه الأعراب ماوعت ذاكرتهم من تراث الآباء والأجداد .

ثم عكفوا عليه ، يدونونه ويصنفون منه معجم ألفاظ الفصحى ، لغة الدين والدولة ، ويستقرونه ليستنبطوا منه قواعد نحوها واشتقاقها وتصرفها ، وخصائص بيانها وموازين شعرها .

واستوعبت هذه العربية ، ما عرّب المترجمون من تراث الفلسفة اليونانية ونظريات العلم والفكر القديم ، فأدّته عربى اللسان إسلامى الروح . . . ووسّعها ، فى طوعية مرنة وحيوية فذة وأصالة راسخة ، أن تستجيب لانساع آفاق الدولة الإسلامية ، واعية لدورها الجليل فى الوفاء بحاجات الحياة اللغوية للحضارة الإسلامية الرائدة ، ومدركة مغزى كونها لغة أمة قوية فائدة ، ولسان شعوب ذات عراق فى المدنية والفكر والثقافة .

وما يزال التاريخ فى عجب من أمر هذه العربية : كيف استطاعت بعقريّة فذة ، أن تأخذ مجراها الحيوى بين الأصالة والتطور ، لتكون لغة الدين والعلم والأدب والثقافة ، لشعوب تفاوتت ميراثها الحضارى ، واختلفت سلاتقها اللغوية باختلاف ألسنتها الأولى ، وتحقق وجودها اللغوى محافظة على أنقى أصالتها العريقة ، ومتجددة مع الحياة التى لا تسمح بالبقاء لما لا يصلح للبقاء ؟ !

ومن قبل أن تخترع المطبعة في الدنيا ، كانت دور العلم والحكمة تقوم على ساحة العالم الإسلامي من أقصى المشرق إلى أقصى المغرب ، صروحاً شائعة للمعرفة ، ومنارات هادية في ليل العصور الوسطى .

ومن قبل أن تقرأ الدنيا أول كتاب مطبوع ، كانت هذه الدور الإسلامية كنوزاً عامرة بملايين الذخائر من الكتب المخطوطة ، في شتى فروع العلم وضروب المعرفة وفنون الثقافة . . .

ثم تغيرت الدنيا ، وتحول متجه الحضارة من الشرق الإسلامي إلى الغرب الأوربي ، على المعابر التاريخية التي نقلت تراث علومنا وكنوز حضارتنا : اليوسفور وصقلية والأندلس . . .

وتعرض العالم الإسلامي ، مشرقه ومغرب ، لتيارات غزو جائح مذهبي وفكري ولغوي ، وعسكري واقتصادي . .

وبقيت العربية تتحدّى ذرائع القهر والضياع ، وتفرض وجودها الحيوي على الدنيا . .
وبقى القرآن ، وبقى لنا أبداً ، يحمي وجود أمتنا ويقود مسراها في ظلمات المحن وغواشي الخطوب ، ويجلو بصيرتها بنور العلم والحكمة ، ويهدي خطاها فيما تحمل من تكاليف وجودها الحر الكريم ، جهاداً في سبيل الله ، ضد الباطل والشر والقبح :
« هو الذي بعث في الأميين رسولا منهم يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة وإن كانوا من قبل لفي ضلال مبين » .

صدق الله العظيم

وراء الأسوار

« علم الإنسان ما لم يعلم »

من عجب أن صحراء الجزيرة العربية ، مهد العربية والإسلام ، ظلت بمعزل عن كل هاتيك الأحداث الكبار ، لا تكاد تحس حركة سير الزمن بلغة العرب وأمة القرآن . ولا تدرى شيئاً عما ارتدنا وارتاد غيرنا من جديد الآفاق ، واكتشفنا واكتشفوا من مجاهل الكون وأسرار الحياة وموازين القوى ، وسخرنا وسخروا بإذن الله ، من ظواهر الطبيعة وخواص العناصر . . .

مضت قرون أربعة عشر ، وملايين المسلمين في شتى أقطار الأرض يولون وجوههم حيناً كانوا شطراً للمسجد الحرام في أم القرى ، مصبحين وممسين وعشيّاً وحين يُظهرون . ومئات الألوف منهم يسعون إليه في موسم الحج من كل سنة قرية ، مليون ضارعين :
ليك اللهم ليك لا شريك لك ليك

غير أنهم قلما يتجاوزون الحجاز إلى نجد ، فضلاً عن أن يوغلوا في الدهناء والربع الخالي . .

وكلما هل هلال رمضان ، احتشدت مواكبه لرؤيته ، وبدعوا به موسمهم الديني الكبير صياماً ومجاهدة ، احتفالاً بالشهر الذي بدأ فيه نزول القرآن هدى للناس وبينات من الهدى والفرقان ، وقلوبهم تنرو في خشوع إلى غار حراء بمكة ، حيث بزغ نور الفجر الصادق . وصحراء الجزيرة ، على مسار تلك القرون ، قائمة هناك بكل صمتها العميق وسرها المحجوب ، تترامى وراء أسوار جبالها الحاجزة عن تهامة وساحل البحر الأحمر . ممتدة إلى شطوط الخليج ومشارف اليمن في عزلة موحشة : لا تعرفها دنيا وإن تكلمت بلغتها . وبايعت نبياً من صميم قبائلها ، وآمنت بدين حمله إليها عربٌ خلّص من جند الإسلام الأولين .

بقيت الصحراء هناك ، لا يكاد يلم بها أحد سوى جماعات من البدو الرحّل ييمون في فلواتها متمسكين بمواقع الغيث ومنازل المطر ؛ وعلماء الاستشراق في كبريات العواصم من عالم اليوم ، عاكفون على جمع ذخائر تراثها ودرس شخصيتها ، وطلاب الجامعات والمعاهد في المشرق والمغرب يدرسون أصول الفصحى ويحفظون أمثال البدو وأراجيز الرعاة ، ويعرفون وقائع مهلهل وعنترة ، ومغامرات الصعاليك وقصص الفتيان . ويسهرون على نار حاتم والمخلق ، ويشجيم على بعد الديار بكاء الأطلال ومراى

الأحباب ، ويكادون يسمعون رغاء الإبل وتسهال الخيل ونزع الأوتاد عند شدّ الرجال ، كأنهم مع الحارث بن حلزة البكرى إذ يقول .

أجمعوا أمرهم عشاءً فلما أصبحوا أصبحت لهم ضوضاء
من منادٍ ومن مجيبٍ ومن تصبٍ حالٍ خيلٍ ، خلالَ ذلك رغاء
بقيت الجزيرة ، فيما عدا أطرافها وقراها ، نائية مهجورة غامضة مقنعة ، لا تريد أن
تتصل بالدنيا خارجها أو تبيح حياها لغير أهلها الأعراب البداة . . قد آثرت العزلة على
الاتصال بالدنيا ، وأقامت بواديها الواسعة ورمالها المترامية وصخورها الصلبة ، أسواراً
منيعاً تحمي أعرافها وتقاليدها وعاداتها ، غير مستجيبة لتطور الحياة ولا مكترثة بسير الزمان
[فلو أن أحد العرب القدامى عاد إلى تلك البقاع من الجزيرة لما وجد ما يشير دهشته :
سيجد العرب في خيامهم السود ، والبدو الرحل على ظهور إبلهم ، والرعاة يستسقون .
سيجد كل شيء في مكانه كما تركه ، وملابس الناس كما كانت ومظهرهم الجسائي لم
يتبدل]^(١).

الدنيا الجديدة ، من وراء أسوار الجزيرة ، انتقلت من عصر البخار إلى الكهرباء
فالدرة ، ومن عصر القاطرة والبأخرة إلى السيارة والطائرة ،
والجزيرة في عزلتها العنيدة تتحدى كل تغيير وتمتنع على كل تطور . وتترامى صحاريها :
الدهناء والنفود والرّبع الحالي ، من شرق نجد ومن شمال وجنوب ، حداً فاصلاً بين عالم
اليوم ، وتلك الصورة الباقية من قديم الزمان .

حياة فطرية بدوية ، لا تكاد تختلف في شيء عن تلك التي عرفتها العرب البائدة في
قديمها الغابر ، فيما عدا الإسلام الذي اعتنقته الجزيرة ديناً من زمن المبعث ، فكان آخر
عهداها بالأوثان والأوثان .

« بحار من الرمال الناعمة تكاد تبلمع المارة لنعومتها وتخلخلها ، وقبائل من البدو الرحّل
الرعاة ، المطر محو حياتهم ومشغلة بالهم ، فأهل نجد لا يأبهون لشيء إذا رزقهم الله المطر
نحياً به زروعهم وأنعامهم . أما الصحراء الجنوبية فلا يكاد يصيبها الرذاذ ساعة واحدة كل
ثلاث سنين أو أربع »^(٢).

(١) د . ف . بودلى : (الرسول) ترجمة محمد فرج وعبد الحميد السحار .

(٢) السيد حافظ وهبة : جزيرة العرب : ص ٦ .

وهم مع ذلك راضون عنها متشبثون بها ، وربما عرضت لبعضهم فرصة الحياة الناعمة في حضر ، فرفضوا أن يستبدلوها بحياتهم الشاقة القاسية . الحشنة الجافية . ويفرض أنها حياة تقصر الأجل ، فهي تهب مع العمر القصير نعمة الحرية والانطلاق . والآجال ، بعدُ كتابٌ موقوت على الناس جميعاً ، بدوهم والحضر ، فإذا جاء أجلهم لا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون ، « أينا نكونوا يُدرككم الموتُ ولو كنتم في بروج مشيدة » . ولعل فيهم من لا يزالون يحفظون ، مع ما يتلون من آيات الفرقان في حتمية الموت ، أقوالاً لشعرائهم الجاهليين جرت مجرى الأمثال ، كقول الشاعر الشاب « طرفة بن العبد » البكري :

أرى الموت أعداداً النفوس ولا أرى بعيداً غداً ما أقرب اليوم من غدٍ
لعمرك إن الموت ما أخطأ الفتي ككأطول المرثي وثنياء باليد
وقول شيخهم الحكيم « زهير بن أبي سلمى » :
ومن هاب أسباب المنايا يتلته ولو رام أسباب السماء بسلمٍ
وقول « السُّلَكَة » ، أم السليك « الفتي الجاهلي الصعلوك ، تبكي مصرعه :
راح يبغى نجوة من هلاكٍ فهلكُ والمنايا للفتي رصدٌ حيث سلكُ
وشهدت دنيانا في العصر الحديث مثل هذه المفارقات :

في ربوع النيل والشام وبلاد النهرين وإيران ، مما يلي حدود الجزيرة العربية غرباً وشمالاً وشرقاً ، قصور باذخة ، ومبانٍ راسخة منها آثار تبلغ من العمر ألوف سنين . وغير بعيد منها في الجزيرة العربية بُدأةٌ وحُلٌ يسكنون الخيام المتنقلة معهم حيث تزلوا ، لا يعرفون في القرن العشرين ، فائدة للأبواب والنوافذ الخشبية « حتى إن البدو الذين كانوا في جيش الملك حسين ^(١) إبان الحرب العظمى ، كان عملهم بعد الاستيلاء على الطائف ، نزع خشب النوافذ والأبواب لا لبيعها والانتفاع بشمها ، بل لاستعمالها وقوداً للقهوة أو الطبخ أو التدفئة . وبدؤ نجح قد فعلوا مثل ذلك تماماً : فعندما أسكتت الحكومة بعض القبائل في ثكنة جرّول ، اكتشفت أن النوافذ والأبواب الخشبية تنقص بالتدريج ، وأنها استعملت للطبخ وتحضير القهوة . وأخرجهم جلالة الملك تواء من الثكنة ، وأسكن الحضر

(١) الملك حسين ، الشريف الهاشمي ، أبو فيصل الأول وعبد الله ، ملكي العراق وشرق الأردن . كان الشريف حسين ملكاً على الحجاز حتى هزمه التجديرون سنة ١٩٢٥ . ودخل الحجاز مع سائر مناطق الجزيرة في المملكة العربية السعودية .

فيها . والحضر بطبيعتهم يفهمون ما لا يفهمه البدو عن النوافذ والأبواب» (١) .
وكان الحجاج من الأقطار الإسلامية المجاورة للجزيرة ، يسعون إلى حدودها ، راكبين
البواخر والسيارات والقطر الحديدية ، فإذا بلغوا الحجاز تنقلوا بالجمال من حيث جاءوا ،
إلى مكة والمدينة .

وحين كان المنطاد (جراف تسيلين) يخلق في أفق الشرق الأوسط سنة ١٩٣٠ م ، كان
مشايخ نجد وأهلها بعامه ، يرون التلفراف اللاسلكي من عمل الجن ، ويشفقون على
عاهلهم « الملك الراحل عبد العزيز آل سعود » من عواقب الإصغاء إلى جند الشيطان الذين
يزينون له استخدام السيارة واللاسلكي !

حدث « السيد حافظ » وهبة أن جلالة الملك أوفده إلى المدينة سنة ١٩٢٨ م ، مع
عالم من علماء نجد ، للتفتيش الإداري والديني .

« فجرى فكرُ التلفراف اللاسلكي وما يتصل به من المستحدثات . فقال الشيخ :
لاشك أن هذه الأشياء ناشئة من استخدام الجن ، وقد أخبره ثقة أن التلفراف اللاسلكي
لا يشتغل إلا بعد أن تُذبح عنده ذبيحة ويُذكر عليها اسمُ الشيطان » :

« ثم أخذ يذكر لي بعض القصص عن استخدام بني آدم للشيطان ! ولقد كان شرحي
لنظرية التلفراف اللاسلكي وتاريخ استكشافه ، ليس له نصيب من إقناع الشيخ . ولم أجد
أية فائدة من وراء البحث ، فسكتُ على مضض . . .

« وفي يوم من الأيام ، دعاني الشيخ لمرافقته لزيارة قبر حمزة ، عم الرسول - عليه
الصلاة والسلام - عند (أحد) حيث استشهد حمزة بن عبد المطلب رضي الله عنه - وفي
أثناء الطريق ، أوقفت السيارة عند محطة التلفراف اللاسلكي . وهنا سألت الشيخ : لماذا
وقفت السيارة ؟ فأجبت : لرى التلفراف اللاسلكي ، فإذا كان هنالك ذبائح ودعوة لغير
الله ، فإني سأحرقه مهما تكن النتيجة ، فالدين لله لا لابنِ سعود . وقد يكون الملك مخدوعاً
في أمر هذه التلفرافات ، وتُذكر له الأشياء على غير حقيقتها .

« فقال الشيخ : بارك الله فيك » .

« فدخلت المحطة ، وبعد البحث لم يجد الشيخ أى أثر لعظام الذبائح وقرونها
أو صوفها . ثم أراه العاملُ طريقة المخابرة . وفي دقائق ، تبودلت المخابرات والتحيات بينه

(١) حافظ وهبة : جزيرة العرب .

وبين جلالة الملك في جدة . كانت هذه الزيارة البسيطة مدعاةً للشك فيما كان يعتقد من عمل الشيطان في المخبرات . ولكنه ظن أنى ربما دُيرت هذه المكيدة بإيعاز من الملك . فرار الشيخ محطة التلغراف بضع مرات منفرداً في أوقات مختلفة بدون أن يخبر أحداً بعزمه . فكان يفاجئ العامل بالزيارة ويسأله عن كل ما يغمض عليه . وعندما وُضعت الآلة اللاسلكية واستعملت في الرياض - عاصمة نجد والمملكة - كان الناس يفرى بعضهم بعضاً بأن إنشاء هذه المحطة هو الحدُّ بين الخير والشر ، وكان العلماء يرسلون من ياتمونهم لزيارة المحطة وروية الشياطين والذباح تُقدم لهم ، فلم يجدوا شيئاً . وقد أختبرني عامل المحطة أن بعض المشايخ الصغار ، كانوا يترددون عليه من وقت لآخر . لسؤاله عن موعد زيارة الشياطين ، وهل الشيطان الكبير في مكة أو الرياض ؟ وكم عدد أولاده الذين يساعدونه في مهمة نقل الأخبار ؟ فكان يجيبهم بأن ليس للشياطين دخلٌ في عمله . وكان بعضهم يفره بالنقود ، وأنهم سيكتمون السر !^(١).

ولم تكن السيارات والدراجات ، أسدحطاً من اللاسلكي فركوب الدراجة . واسمها في نجد : عربة الشيطان أو حصان إبليس - كان إلى عهد قريب إثماً ومعصية . فهي بدعة تسير بقوة السحر وعمل الشيطان ، بدليل أن الراكب إذا نزل لم تقف ! وكان في الإخوان ، مشايخ نجد ، من يرون من حقهم ، أو من ولجهم الديني ، منع هذا الإثم ، وضرب راكب الدراجة ولو كان من خدم الملك !

وحدث في نجد ، وقد مضى من القرن العشرين نحو عقدين ، أن كُسرَت أولُ ساعة دقاقة ، وعُدَّت من عمل الشيطان . ولم تكد هذه الفكرة تُشاع ، حتى قامت قيامة الإخوان من سكان البادية ، منكرين استعمالها ، وأعلنوا في الناس فتياهم : « إن أقل الأحوال فيها أنها بدعة » مما اضطر أحد المشايخ - الشيخ سعيد بن سحان - إلى أن يرد عليهم في رسالة نشرها سنة ١٣٣٤ هـ ، ١٩١٦ م . وطبعت في القاهرة سنة ١٩٢٣ م .

(١) حافظ وهبة : جزيرة العرب ، ص ٣٠٨ .

المعركة الكبرى

« من اليوم ، سنحيا حياة جديدة »

الملك عبد العزيز

في مثل تلك العزلة العنيدة عن الدنيا والحياة ، كان العرب من بوادي الجزيرة يعيشون بعقليتهم وأوضاعهم في حصون منيعة وراء الأسوار ، يشهرون السلاح في وجه كل تطور ، ويدفعون منكرات يدّعه بالسيف .

وكانت تلك هي المعركة الكبرى التي خاضها عاهل الجزيرة الراحل « الملك عبد العزيز آل سعود » على كثرة ما خاض قبلها من معارك مشهودة . أذكر منها معركة التي استرد فيها « الرياض » من خصمه القوي اللدود « محمد بن الرشيد » شيخ قبائل شمر شمالي نجد . وكان جيش عبد العزيز الذي اقتحم به معقل العدو في عاصمة نجد ، كتيبة من الرجال عدتهم أربعون ، أبى أكثرهم عند سور البلدة ، وهاجم في خمسة عشر من صحبه ، عامل ابن الرشيد في حصنه بين جنده وحرّسه ، فمّا انتصف النهار حتى أذن المؤذن من الحصن : إن الحكم لله ثم لعبد العزيز .

والأخرى التي لقي فيها عبد العزيز ، الشريف حسين ملك الحجاز ، سنة ١٩٢٥ ، فهزم جنده بالطائف ثم دخل مكة فاتحاً دون حرب ، ومن بعدها دخل المدينة ، ثم جدة : آخر معاقل الأشراف .

لكن معركة الكبرى ، كانت هذه الثورة الإصلاحية ، يواجه فيها إخوانه وأهله وأصدقاءه ورعاياه ، وما أشقّ النضال حين يكون ضد أخ وصديق ، من هؤلاء الذين انتصر بهم على الملك حسين وعلى ابن الرشيد !

ومثل هذه المعركة ، لا تعرف المواقف الحاسمة ، وإنما هي جولات تتعاقب وصراع يتجدد كلما بدا لعاهل الجزيرة أن يدخل إليها جديداً من مخترعات الأجهزة ومحدثات العلم . وقد لبث زمناً غير قصير ، متردداً بين رغبته في الإصلاح ومسائرته الإخوان . وصارهم طويلاً وهم على موقفهم من عداء العلم الحديث ومعاودة التطور .

أراد العاهل الكبير أن يمد سلكاً تليفونياً بين مكة ومعسكره في جدة ، والمسافة بينهما

تستغرق ثمانى ساعات ذهاباً ومثلها فى الاياب ، على ظهور الخيل والابل السريعة . لكنه اضطر إلى إرجاء المشروع كيلا تثار ثائرة الإخوان الذين كانوا يقطعون أسلاك التليفون « لأنها منكر يجب إزالته » .

حتى إذا لم يجد بدأ من نفع قومه وبلاده بمحدث المخترعات العلمية ، عمد إلى ملاينة الإخوان وإقناعهم بالحجة ، عسى أن يطمئثوا إلى أن ذلك كله من تحقيق آيات الخالق سبحانه ، فيما سخر لنا مما فى السموات والأرض جميعاً . وفى مؤتمر بالرياض ، دعا إليه العاهل كبر المشايخ فى يناير سنة ١٩٢٧ ، كان أقصى ما وصل إليه منهم ، بعد طول المناظرة والجدل ، الفتوى المشهورة :

« . . أما مسألة البرق فهو أمر حادث فى آخر الزمان هذا ، ولا نعلم حقيقته ولا رأينا فيه كلاماً لأحد من أهل العلم . فتوقفنا فى مسألته ، ولا نقول على الله ورسوله بغير علم . والجزم بالإباحة والتحريم ، يحتاج إلى الوقوف على حقيقته » .

وما كان لمثل الفتيا أن تحسم الموقف ، وبدا أن الإخوان مصرون على توقفهم فى كل « أمر حادث فى آخر الزمان هذا » مما اضطر العاهل المصلح إلى اصطناع الحزم فى كلامه معهم .

حدث ، رحمه الله ، أن المشايخ حضروا عنده لما علموا بعزمه على إنشاء محطات لاسلكية فى الرياض وبعض المدن الكبيرة فى نجد . فقالوا له : ياطويل العمر ، لقد غشك من أشار عليك باستعمال التلغراف وإدخاله إلى بلادنا ، وإن « فلى » ميعر علينا المصائب . فقال لهم الملك : « لقد أخطأتم ، فلم يغشنا أحد . ولست والله الحمد بضعيف العقل أو قصير النظر لأخذع . . وما « فلى » إلا تاجر ، وكان وسيطاً فى هذه الصفقة . إخوانى المشايخ : أنتم الآن فوق رأسى ، تماسكوا بعضكم ببعض ، لا تدعوني أهر رأسى فيقع بعضكم أو أكثركم ، وأنتم تعلمون أن من وقع على الأرض ، لا يمكن أن يوضع فوق رأسى مرة ثانية . مسألان لا أسمع فيهما كلام أحد لظهور فائدتهما لى وليلادى ، وليس هناك من دليل أوسنة يمنع من إحداث : اللاسلكى والسيارات » (١) .

(١) عبد الرحمن نصر : عاهل الجزيرة ، ص ١١٨ وما بعدها ، وفلى ، سانت جون : كان ضابطاً سياسياً فى دار التدبوس السامى ببغداد . أوفده الإنجليز لمفاوضة ابن سعود سنة ١٩١٧ إبان الحرب العظمى ، والمركة فى الميدان الشرق دائرة بين الإنجليز والترك . وقد أشهر فلى إسلامه ، وسمى نفسه « عبد الله » ووضع خبرته الاقتصادية والسياسية فى خدمة الملك عبد العزيز ، وخدمة الإنجليز بطبيعة الحال :

ولم يحسم النزاع ، بل نال بعضهم العاهل الإمام « بمولاة الكفار والتساهل في الدين .
وأنكروا عليه تطويل الثوب والشارب وليس العقال . إلى غير ذلك من ضروب الجهالة »
وأصبحوا يُحرّمون كل ما لا يتفق ومذهبهم . حتى كادت تكون فتنة أهلية بين الإخوان
والحكومة ، بين البدو والحضر . فجرد العاهل كتيبة من شباب المتفقهين في دينهم ،
وأوفدهم إلى شباب الإخوان ، عسى أن يصلحوا ما أفسد الكبار ولما بلغ الأمر أفسى
مداه ، عيل صبر العاهل الشيخ ، فأرسل جنده في مستهل سنة ١٩٣٠ لتأديب « العصاة
الذين طغوا وعاثوا في الأرض فساداً ، باسم الدفاع عن الدين وجي برأس الفتنة » فيصل
الدويش « بعد معركة أم الرضمة ، إلى خيمة الملك في سيارة مكشوفة فكانت اللعنات
تُصب عليه من أتباعه ، لركوبه السيارة !

وكان مما قاله الدويش بعد انكساره :

« يعلم الله يا عبد العزيز أنك لم تقصر معنا . وقد فعلت كل ما يبيض وجهك ، وقابلنا
معروفك بالإساءة . لقد فررنا من وجهك إلى الكفار فحملونا إليك في طيارة من
طياراتهم . ويكنى ما أشعر به من الهوان والصغار أمام الإخوان ، بعد أن كنت عزيزاً
محرماً »^(١) .

وقد عدّ بعض الكتاب معركة (أم الرضمة) وما تلاها من استسلام « الدويش »
للملك عبد العزيز : من المارك الفاصلة بين النظام والقوضى ، وعدّوا نصر الملك فيها :
نصراً للتقدم على الرجعية .

وأصغت الجزيرة كلها إلى كلمة عاهلها ، بعد أم الرضمة : « من اليوم سنحيا حياة
جديدة » .

لكن الواقع أن تحضير البادية لم يكن ليتم باستسلام هذا المتمرّد أو ذاك ، ولا كان
بحيث يتقرر في هذه المعركة أو أخرى ، وإنما هو الصراع المستمر المتحضر ، يتجدّد مع كل
مجلوب من مستحدثات العلم . وقد يكن فترة تحت رماد الخضوع أو المداراة ، ليعود بعد
حين أحدّ ضراماً .

والذى حدث بالفعل بعد تلك الجولة ، أن حركة التحضير والتعمير سارت بطيئة في

(١) كان فيصل الدويش من زعماء القبائل وكبار الإخوان ، خرج على الملك عبد العزيز سنة ١٩٢٩ ثم لما حاقت
به الغزوة هرب إلى الكويت وسلم نفسه إلى دورية بريطانية أعادته إلى الملك عبد العزيز - انظر : عاهل الجزيرة ٢٢١ :

وجه مقاومة قوية من سلطان الإلف والعادة ، وموروث الأعراف والأوضاع . ويشهد على ذلك أن الملك عبد العزيز أعلن ، رحمه الله ، بدء الحياة الجديدة ، في شهر يناير سنة ١٩٣٠ ، وظلت البادية بعد ذلك تنظر في حذر وارتياح إلى كل خطوة نحو التحضر ، وتحاول أن تدفع منكرات البدع باللسان أو القلب ، بعد أن عجزت عن دفعها باليد . . . وبدا كأن الصحراء في حاجة إلى معجزة جديدة ، تضع حداً لهذه الحرب الخفية ضد العلم الذى يتجه إلى الإسلام في ترسيخ الإيمان ، وتُمكن عاهل الجزيرة من تنفيذ رغبته في إصلاح وطيد الأسس حاسم النتائج ، بدلا من هذه الخطوات البطيئة الحذيرة ، المهددة في أى وقت بهجوم مضاد من الرجعية ، يعيدها القهقرى مجهدة مقهورة .

هل قلت إن المعركة كانت بين الرجعية والمحدثات من بدع الأجهزة والآلات ! إنى إذن لم أقل كل الواقع . فالحق أن أبعاد الصراع كانت أعمق غوراً وأوسع مجالاً ، لم يقف الصراع عند (البدع) المستحدثة في آخر هذا الزمان ، بل امتد إلى نمط العيش ومواد التعليم موغلا في الصميم ، لم يكد بدع كبيرة ولا صغيرة من شئون الحياة . وقد نقلت آنفاً ، ماكان من نيل بعضهم الإمام العاهل بموالة الكفار والتساهل في الدين ، وإنكارهم عليه تطويل الثوب والشارب ولبس العقال . ولنا أن نتصور مدى ماكان المجدد المصلح يحتاج إليه من جهد وصبر وحزم وحكمة وطول بال . لكى يتغلب على عناد قوم ضجوا لأن المدارس تريد لتفتن التلاميذ عن العلم الحق الذى لا يمكن أن يخرج عندهم عن التفسير والحديث والفقه وعلوم العربية وتاريخ الإسلام . وكان من مظاهر الضجة أن « اجتمع علماء الدين من التجديد ، سنة ١٩٣٠ وتشاوروا في الأمر ، ثم أصدروا قراراً بالاحتجاج على إدارة المعارف في مكة ، لأنها أدخلت في برنامج التعليم : الرسم واللغة الأجنبية والجغرافية . » !

ولم ير العاهل من الحكمة أن يمحى في سبيله غير مكترث لاحتجاج المشايخ ، بل أوفد رسولاً إليهم « ليجلوهم الأمر ويبحث معهم في شأن هذه المسائل التى احتجوا عليها وطلبوا إلغائها من برامج التعليم . »

قال قائلهم :

« لقد بينا للإمام عبد العزيز الأدلة والمقاسد التى تترتب على تقرير هذه العلوم : أما الرسم فهو التصوير وهو محرم قطعاً . وأما اللغات فإنها ذريعة للوقوف على عقائد الكفار

وعلمهم الفاسدة ، وفي ذلك ما فيه من الخطر على عقائدنا وعلى أخلاق أبنائنا . وأما الجغرافية ففيها كروية الأرض ودورانها ، والكلام على النجوم والكواكب ، مما أخذ به علماء اليونان وأنكره علماء السلف .

أريد لأقول : إن معركة أم الرضمة لم تكن الفاصلة كما بدت في حينها ، فهذا الرفض لتدريس الرسم والجغرافية بمدارس مكة ، قد كان بعد استلام فيصل الدويش للملك عبد العزيز . ومشايخ نجد قد كانوا « يحرمون دروس المنطق والفلسفة » وينكرون على بعض المتعلمين قراءة الصحف السيارة ، ويرون المثل الأعلى للعلماء ، أن يصرفوا أعمارهم في الرد على مخالفهم « ، ومن ثم أرادوا لإمامهم عبد العزيز ، أن يشغل بالدفاع عن مذهب نجد الوهابي ، والجهاد في سبيل نقاء العقيدة الإسلامية من شوائب البدع ، وحماية البلاد من كل طارئٍ دخيل . .

° ° °

وفيما كان الصراع على أشده بين الثنطور الحضاري والجمود على موروث الأوضاع والأعراف ، تجلت آية العلم فكشفت في القلاة الموحشة المغلقة ، عن كثر ثمين مطمور تحت الحصى والرمال .

وسقطت الحواجز والأسوار . فإذا بصحراء الجزيرة تشد إليها الأنظار والأسماع في عالم اليوم . . .

° ° °

وجهاً لوجه في قلب الصحراء . . .

« وسخر لكم ما في السموات وما في الأرض
جميعاً منه ، إن في ذلك لآيات لقوم يذكرون »
صدق الله العظيم

كانوا أشبه بفريق من الرحالة الرواد ، نزحوا من العالم الجديد في بداية الثلث الثاني من هذا القرن العشرين ، ونصبوا خيامهم بين جبال النهرين والظهران على حافة الربع الخالي ، حيث لا ظل ولا ماء ، بل المهمة الفقر تمتد عن يمين وشمال ، ومن الأمام والحلف ، ماحلاً موحشاً رهيباً ، تتلوى خيوط الرمال على أديمه كأنها الثعابين ، وتعوى الريح على أعالي قمم وكتبانها ، فتجاوبها من السفوح والقيعان أصداء كأنها عزيف الجان ، فهي كما وصفها « ذوالرمة » من وراء نحو ألف وثلاثمائة سنة :

ورملي لعزف الجن في عقدايه هريز ككصراب المغنين بالطليل
نصبوا خيامهم هناك منبذين بالعراء ، حيث الضوء الساطع من شمس الظهيرة يعشي الأَبصار ، والظلمة الحالكة في الليل البهيم تخلع الأفئدة . قد هجروا الأهل والولد ، وتركوا الحياة الناعمة المترفة في أمريكا وراء ظهورهم ، عسى أن يكشفوا عن ينابيع للبرول قد تكون مطمودة تحت أديم بقعة من هذه القلاة الموحشة .

قبلهم ، كان رواد آخرون قد سبقوهم إلى هناك ، في شتاء سنة ١٩٣٠ ، ونقبوا عن الزيت في الشمال الغربي من نجد ، ثم مضوا ياتسين من الصحراء ، بعد أن أذابوا في رمالها لللبنية أكدماساً من المال مختلطة بالعرق من جهد ضائع .

فجاء هؤلاء على أثرهم يستأنفون المحاولة ، بأمل جديد . وكانت منطقة الأحساء ، شرقي نجد والدهناء ، وجهتهم هذه المرة . فشقوا إليها ما يقرب من ألف ميل عبر الصحراء القاحلة ، موقدين من شركة « ستاندرد أويل » في كاليفورنيا ، وهي الشركة الوحيدة التي قبلت الدخول في هذه المغامرة وتمويلها ، سعيًا وراء كثر مجهول المكان ، مشكوك في وجوده وقيمه .

وفى اليوم الثالث من سبتمبر سنة ١٩٣٣ ، وصل مدير الشركة إلى الظهران بعد توقيع اتفاقية الزيت مع الحكومة السعودية . وجاء معه بالرجال والآلات للتنقيب القهيدى ، وبدأ الحفر فعلاً فى آخر أبريل من سنة ١٩٣٥ .

• • •

أكبوا على تلك الرمال القاسية والصخور الجرداء ، يحفرون وينقبون ، بين قيط يشوى اللحم ويصهر العظم ، وزمهرير يثلج البدن ويجمد الدم . منقطعين عن الدنيا نائين عن العمران ، يحيط بهم القفر اليباب من كل جانب ، وتراقبهم عن كسب عيون حديدية البصر ثاقبة النظرات . تخصى عليهم كل حركة وسكنة ، وترقب سير العمل فى حذر وارتباب . تلك هى عيون العرب النجديين الذين التقى بهم الأمريكان وجهاً لوجه فى قلب الصحراء ، فكان صراع غير سافر ولا صريح . .

• • •

خمس سنين من الجهد المضنى والحياة الحثثة القاسية والعمل الكادح ، أذابت الرمال فيها خمسة عشر مليوناً من الدولارات ، قبل أن ينبج هؤلاء الكادحين قطرة من ذهبها الأسود ، أو تأذن لهم فى لحظة من راحة وأمان .

خمس سنين ، قضاهأ أبناء الدنيا الجديدة فى مجاهل المنطقة ، يحفرون البئر بعد البئر ويتنقلون من قفر إلى قفر ، والصحراء ضنيئة بسرهما ممسكة عن العطاء لا تقدم إلى ضيوفها الغرباء إلا القبط والزمهرير ، ولسع الصخور وعواصف الرمال ، والوحشة والملال . ولا تكف عنهم ملاحقة حراسها الغلاظ الأشداء ، الذين أغضبهم أن تطفأ أرض الجزيرة قدم كافر من الفرنجة . .

لكن الباحثين عن الكثر ، كانوا يدركون أن اليأس هو عدوهم الألد ، من ثم راحوا يحاربون هذا العدو فى أنفسهم ، ويحشونه أكثر مما يحشون حراس الصحراء ووحوش الفلاة . . أما التعب والملل وشظف العيش وعسر الحياة ، فداخل كله فى الحساب ، وهل كانوا يجهلون يوم نزعوا من أمريكا ، أنهم ملاقو هذا النصب كله ومثله معه ؟

• • •

وكانوا قد تعلموا فى مدارسهم ومعاملهم بالغرب الحديث ، ألا ينصرفوا عن متابعة التجارب ، بعد إخفاق الأولى والثانية والثالثة والرابعة والخامسة . . . وأكبوا من جديد على الرمال الكاوية ، يحفرون البئرين السادسة والسابعة .

وكانت معركة ، تلاقى فيها جيروت العلم مع جيروت الصحراء ، فتم النصر للعلم :
 هنالك كشفت الصحراء عن سرها الخطير ، وأباحت كثرها من دأبوا على البحث عنه
 في عزيمة صامدة ، وإرادة عنيدة لا تتخاذل .
 وتجلت آية العلم في صحراء الجزيرة التي أصغت من نحو أربعة عشر قرناً إلى كلمات
 الوحي الأولى :

« اقرأ باسم ربك الذي خلق »

فسبحت خاشعاً باسم الله الذي :

« علم الإنسان ما لم يعلم »

انتصر العلم وأثمر الجهد هذه المرة السابعة ، فأذاع البرق في اليوم الثاني عشر من مارس
 سنة ١٩٣٨ نبأ حفر أول بئر للبترول في الظهران من حقل الدمام الذي بلغت مساحته تسعة
 آلاف فدان ، وعمقه ٤٥٠٠ قدم . وعدد آباره اثنتين وثلاثين !
 ثم توالى الأنباء من بعد ذلك معلنة في الأعوام الأولى عن اكتشاف حقول :
 أبو حدرية : سنة ١٩٤٠ وترك مُغلَقاً .
 بُقيق : سنة ١٩٤١ ومساحته سبعة وسبعون ألف فدان ، وعمقه إحدى عشرة قدماً ،
 وآباره ثمان عشرة .

القطيف : سنة ١٩٤٥ ، وعمقه سبعة آلاف وثلثمائة قدم ، وآباره اثنتان .
 ومن ثم بدأ سيل الذهب الأسود يتدفق سخياً من ينابيعه في جوف الرمال .
 وعلى الرمال الملتبئة ، تحت شمس الصحراء المحرقة وفي قلب الفلاة المهجورة
 الموحشة ، قامت معامل ضخمة تدفع سيل الزيت في أنابيب تمتد أميالاً إلى موانئ الشحن
 والتفريغ على سواحل الخليج والبحر المتوسط .
 ولم يكن التفريغ أمراً هيناً .

أما في الخليج ، فحين جاءت ناقلات البترول إلى الدمام لتحمل هذا السيل الدافق ،
 عاقها هناك عائق من طبيعة الإقليم فلم تستطع أن تصل إلى الساحل عند الدمام ، ميناء
 الظهران ، لأن مياه الخليج هناك ضحلة قريبة الغور .

لكن العلم لم يعجزه أن يصل حافة الصحراء بقلب الخليج حيث ترسو الناقلات ، بل
 تقدم فبنى ميناء تمتد ثمانية أميال في عرض الماء . .

وأما عن البحر المتوسط ، فكان على حاملات البترول أن تقطع ثلاثة آلاف ميل كي

تصل من معامل الزيت في الظهران ورأس تنورة ، إلى موانئ الساحل الشرقى للبحر المتوسط ، عن طريق خليج عدن والبحر الأحمر وقناة السويس . . . وتقدم العلم فهداً خط أنابيب ، طوله ألف وسبعون ميلاً فقط ، مبتدئاً من الأحساء ، ومتجهاً شمالاً بغرب إلى تل الخير قرب حدود الأردن ، ومواصلاً امتداده في هذا الاتجاه عبر الأردن وسورية إلى أن يصل إلى ميناء صيدا ، من الساحل اللبناني .

ويبلغ قطر الأنابيب في هذا الخط ، ثلاثين بوصة . صُنعت بحيث تحتل التقدم والتقلص من اختلاف درجات الحرارة ، ويستطيع هذا الخط الحصين أن يدفع إلى الميناء ثلاثمائة ألف برميل من الزيت ، كل يوم .

وازداد تدفق الزيت يوماً بعد يوم . وسجلت الإحصاءات الرسمية صعود الإنتاج من ٥٨٠ ألف برميل سنة ١٩٣٩ ، إلى خمسة ملايين سنة ١٩٤٠ ، ثم إلى واحد وعشرين مليوناً وثلاثمائة ألف برميل سنة ١٩٤٥ ، ارتفعت إلى مائة وثلاثين مليوناً وتسعمائة ألف برميل سنة ١٩٤٨^(١) .

وما تزال هناك آبار مغلقة لم تستغل بعد .

ومع الزيت ، تدفقت الثروة ، فإذا بالصحراء القاحلة الماحلة الجرداء ، تجود بملايين الجنينيات كل عام ، نصفها للمملكة العربية السعودية صاحبة الكثر والأرض ، والنصف الآخر لشركة أرامكو صاحبة الامتياز^(٢) .

وآن للمهاجرين المتعبين أن يظفروا في تلك الفلاة الموحشة بحياة لعلها لا تقل عن حياتهم الأولى في أمريكا رغداً وترفاً . ولحققت الأسر برجالها بعد أن غدت هذه المنطقة من صحراء الجزيرة عامرة غناء . . .

هل خفف الصدام بين الشرق والغرب ، بين العرب والأمريكان . بعد أن جادت الصحراء بعبائها ؟

(١) لمزيد تفصيل عن قصة البترول ، انظر كتاب : (المملكة العربية السعودية) تأليف كارل تويتشل ، ترجمة السيد شكيب الأموى و . طبع في دار إحياء الكتب العربية بالقاهرة سنة ١٩٥٥ .

(٢) جد على الاتفاقية الأولى ، تغيير لشروطها وتعديل لحقوق الملكية ، وما تزال الدول المنتجة للبترول تتابع جهودها في سبيل عدالة التوزيع لعائد البترول .

كلا . بل هو باق هناك . وإن بدا للنظرة السريعة أن العهد به قد انتهى . ويخفى الذين يتوهمون أن الأمريكان قد غلبوا العرب على أمرهم : فما تزال العيون السود تلاحق أولئك الأجانب الغرباء . بنظرات ثابتة ملؤها الشك والحذر . ساهرة على حراسة تراث الجزيرة وتقاليده العرب وشريعة الإسلام ، من ذرائع الغزو . ولا تكاد ساعة تمر . دون أن تذكر الجزيرة هؤلاء الغرباء بأنهم أجنب . جاءت بهم ضرورة اقتصادية ومدنية تقدر بقدرها . ولا ينبغي لهم أن يتخطوا الأسوار التي بناها عاهل الجزيرة . وأقام عليها الحراس الأشداء .

وهي أسوار تسمح للمدينة الغربية أن تعمر الصحراء وتجلب إليها ما شامت من مخدمات الأجهزة والآلات . لكنها لم تسمح بتسلل غزو فكري بمسح أصالة العربي أو يفتته عن إيمانه وتقاليده . أو يستعمر أرضه . فلا بأس على الجزيرة مثلا . إذا هي استوردت أحدث الطيارات من مصانع الغرب ، لكنها لا تأذن لها في أن تجوس أجواء الجزيرة . إلا بعد أن تطع عليها شعارها القومي الديني :

« لا إله إلا الله . محمد رسول الله » .

في نطاق هذه الحواجز يعيش الأجانب في شبه عزلة . لهم أحياءهم السكنية الخاصة . بمدارسها ومستشفياتها ومطاعمها . لا يكادون يتدججون في أهل نجد . خارج منطقة العمل .

ويوم العطلة هناك الجمعة لا الأحد . للعرب والأمريكان والأوروبيين على السواء . والتقويم الهجري هو الذى تؤرخ به معامل أرامكو ومكائنها . مثل سائر البلاد . والتوقيت العربي هو التوقيت الرسمى : تشرق الشمس في الساعة الواحدة . وتغرب في الثانية عشرة .

ومحظور بناتاً . أن تقام كنائس في مهد الإسلام وجزيرة العرب ، وأن تدق أجراس ونواقيس ، حيث المآذن ترسل دعاء الإسلام من فجر المبعث .

ولا يؤذن لأى قسيس أن يطأ أرض الجزيرة لمهمة دينية : فن شاء من المسيحيين أن يتزوج رجل إلى البحرين مثلا ، ليعقد إكليل العرس .

وغير مسموح للمطاعم الأمريكية أن تقدم لروادها الخمر ولحم الخنزير ، كما يحظر على

(الكاثنن الأمريكانى) عرض هذه المحرمات للبيع .
ويحتمل رجال الشرطة مسؤولية أى مخالفة لهذه القوانين ، تقع فى دوائر عملهم .
مفروض على الأجانب أن يعيشوا هناك ، جنود تعبير لادعاة استعمار .
وبهذا استطاعت الجزيرة حتى الآن أن تحمى استقلالها من سيطرة الدخلاء ، وإن
تركزت المدنية والعصرية تغزو الصحراء وتبعد طرقها وتضيئها بالكهرباء . .
وترنو الجزيرة إلى غد يستطيع فيه أبناؤها أن يسيطروا على الآلة ، وفى سبيل هذا الأمل
المرجو ، فرضت على شركة أرامكو أن تنشئ فى الظهران مدرسة لتخريج صناع من أبناء
العرب ، يدرسون أمرار الكهرباء والميكانيكا والتكنولوجيا ، ويوفد الناجحون منهم إلى
أمريكا ليكون منهم المهندسون والخبراء والطيارون . .
ترى هل يستطيع هؤلاء الشباب أن يقاوموا فتنة الفرثجة فى أمريكا كما قاوموها فى
الجزيرة ، حيث القوانين صارمة والحراس أشداء ؟
الجواب فى ضمير الغد ، عندما يلتقى هذا الجيل من شباب العرب بالأمريكان وجهاً
لوجه فى قلب العالم الجديد ، كما التقى جيل قبله وجهاً لوجه ، فى قلب الصحراء . .

ثورة في الصحراء

« وارزقهم من الثمرات لهم يشكرون »

على متن الريح فوق السحاب ، كانت رحلتنا ما بين جدة والظهران . وقد مضت بنا الطائرة تشق أجواز الفضاء وتطوى البيد والقفار . ونحن نحدق من نوافذها الصغيرة في الصحراء المترامية من تحتنا ، فلا نرى خلال ساعات أربع غير التيه ، تتدافع فيه أمواج الرمال المتقدة في وهج الظهيرة ، وتتطاير ذراتها فتعقد من حولنا سحباً كالضباب . يلف هذا القفر اليباب . .

أربع ساعات عبر المهمة الماحل الأجرد . لم نلمح فيها أثراً لحياة أو معلماً لطريق . ولا سمعنا سوى أزيز الطائرة وهي تتعثر في كهوف الهواء . .

ونظرت إلى رفاق السفر في الطائرة . فإذا فيهم نفر من البدو ركبوا معنا متن الهواء وامتلوا جناح هذا الطير على بساط الريح . وإن فيهم من شق أكباد الإبل في مسيره عبر هاتيك الفياق التي لا تنفك في مخيلتهم ملعباً للغيلان ومراحاً للوحوش . . وعطفتُ على بدوية كانت تجلس أمامي في عابتها السوداء فسألتها : إن كان لها بركوب الطائرة عهد قبل اليوم ؟

فأجابت بصوت هامس . حرصتُ على ألا يبلغ مسمع الرجال الأغراب :
- بل هذى أول مرة أخرج فيها من ديارنا . وما عرفت قط غير الإبل مركباً .
قلت : فما ترين في رحلة اليوم ؟

ردت من فورها : عجبية والله ! وما أدري أهى من فعل ساحر من مرده الجان . أم يعيش في زمننا هاذلك بقية من جند النبي سليمان ؟
ولما سألتها بلغة البادية ، أين تخط رحالها ؟

أجابت بأنها لاحقة برجلها العامل في (الكامب السعودي) بالظهران . فابتسمتُ للمفارقة الطريفة بين عبارتي البدوية : تخط الرحال . واللفظ الحديث الدخيل : الكامب .

وحمل لنا مضيف لحماً طرياً وخبزاً طازجاً شهياً وشراب الكولا والأناناس . فأخذت

أرغب جارقي وهي لا تجرؤ على مس أقداح الشراب ظناً منها أنه من الحرام . . .
ولاحت لنا مياه الخليج أشبه بواحة في الصحراء ، وحوّمت الطائرة حول مطار
الظهران وقد تناثرت فيه الحطائر والمباني كأنها أعشاش طير ، وعلى أرضه كانت بضع
طائرات جاثمة ، شبيهة بجراد منتشر .

ولبثت الطائرة نحو عشر دقائق تدرج فوق ساحة المطار ، قبل أن تستقر على مهبطها ،
ونحن لا نكاد نصدق أننا عبرنا الجزيرة من جدة على ساحل البحر الأحمر ، إلى الظهران
على ساحل الخليج ، في ساعات ما بين ضحى وأصيل !
وتمثل لي آنذاك شاعرنا « طرفة » وهو يضرب بناقته في الدهناء أياماً وليالي . ورحت
أسترجع أبيات قصيدته المعلقة ، في وصف مطبته تلك الأمون الذلول !
هكذا من الناقه إلى الطائرة !

من الهودج ، إلى صالون داكوتا وبريستول ؟
من ماء الأمطار والآبار والعيون ، إلى شراب الأناناس والكولا ؟
ياله من انتقال سريع عبر هوة شاسعة ، فما عرفت الدهناء من قبل عربة أو سيارة .
ولا عهدت قطارا يحوس خلال دروبها ويمرّق بين كتبائها ، حتى اليوم !

وكان مقامنا بالظهران في غرفات عصرية من دار الضيافة ، وثيرة الفراش مضاعة
بالكهرباء ، مكيفة الهواء لا ترى فيها شمساً ولا زمهريراً .
وليس بيننا وبين الصحراء بقيظ نهارها وصقيع ليلها ، سوى جدار بسيط تسفحه
السافيات وتلطمه الميوب .

أى ثورة وأى انقلاب ؟

لقد كانت هذه البيد لا تعرف من المساكن سوى الخيام المتنقلة تقام على العمد
والأوتاد وتُشد بالأطناب . ولا ترى من الطعام سوى الخبز القديد ولحم الإبل ويابس التمر
وماء المطر . أما الغرفات المبنية والنعم الطيبة فكان موعدهم بها في جنة الخلد ، إذ المؤمنون
« في الغرفات آمنون » ، « لهم غرف من فوقها غرف مبنية » ، « وفاكهة مما يتخيرون .
ولحم طير مما يشتهون » .

هي آية العلم كشفت عن الكثر الخبوء في أحشاء الدهناء وأعطت الثروة وبثت الحياة في

ذلك الخراب ، وحوكت إليه المروء إلى جنة في الصحراء .

هذه آبار الزيت ، تدل عليها شُعل حمراء ساطعة الذوائب ، تضيء هذا الظلام مؤذنةً بعهد جديد في الدهناء التي طال ليلها وفضل فيها الحبال ، ومذكرةً بنار القرى التي كان حاتم الطائي يأمر غلامه بإيقادها على جبال طيبى في ليل الدهناء . وبذلك النار الأخرى التي بات عليها « أعشى قيس » آكلاً شارباً ، في ضياقة « المخلق » وبناته ، ثم غدا ساعياً إلى الموسم وهو يترنم بأبياته المشهورات :

لعمري لقد لاحت عيون كثيرة إلى ضوء نار باليفاع تحرق
تُشبُّ لمسرورين يصطليانها ويات على النار الندى والمخلق
فرجعت أرجاء الجزيرة صدى صوته عبر قرون طوال من ليل الجاهلية ، حتى بلغ منا مسمعاً ونحن نتجول في الأحساء ، منتصف القرن العشرين .

ومعالم العمران ماضية في غزوها للصحراء ، تنجاب أمامها ظلال الأشباح التي طالما عمرت الدهناء والنفود والربع الخالى ، وتجتول طليقة بين النهدين والظهuran .
معلنة أن العلم قد انتصر على عناد الصحراء ، كما انتصر على غيرها من برّ وبحر ، وذلك شوامخ الجبال الراسيات ، وسخر السحب واتخذ سبيله بينها سرباً إلى أعلى الفضاء .
وأنايب الزيت تعترض سبيلنا هناك وهناك ، ممتدة شرقاً من الدمام وبقيق ورأس تنورة إلى البحرين على ساحل الخليج ، وشمالاً بغرب ، إلى صيدا على ساحل البحر المتوسط .

مسجلة أن الإنسان قد اكتشف السر الخطير الذى أوجته أحشاء البيداء دهوراً وأحقاباً ، وأزاح كتيان الرمال والصخور عن منجم الذهب الأسود المطمور تحت أديم الصحراء . .

صُورٌ من الجزيرة

- المغنريات
- جارة النبی
- هاجر
- آمنة

المغتربات

« ... ليتنا نقدر أن الغرب ، الظافر الغالب ،
يدين لمؤلاء المغتربات بأكثر ما يتمتع به من نفوذ
سياسي واقتصادي ، في أرضنا الطيبة التي
اغتشيت زماناً ، وشرقنا الذي غلب طويلاً
واستُحيح ! ... »

لَقِيْتِهِنَّ هناك في صحراء الجزيرة ، قد تحلّين طائعات عن الحياة الناعمة في أوطانهن ،
وتبعن أزواجهن إلى ذاك المكان النائي الموحش ، ليهيئن لهم من دفعه العش وأنس
الأسرة ، ما يعينهم على العمل الكادح والكفاح الصعب ، بين الصخور والرمال ...
لَقِيْتِهِنَّ هناك في الدهناء : أمريكيات وأوريبات وآسيويات ، عصريات مثقفات ، قد
رضين بالعيش في تلك القفلة المهجورة ليمسحن بأناملهن الرقيقة العرق المتصب من جباه
رجالهن العاملين في وقدة الرضاء ...

ورأينهن هناك : ابتسامةً وضيئةً في وجه الصحراء الغضوب ، وأطيافاً رشيقة أنيقة
وسط المهمة الفقر ، ونعمة عذبة تروّج عن الرجال الذين يعملون بين ضجيج الآلات
الفضخمة الماردة ، وصفير الرياح الصرصر العاتية ، وعواء الوحوش الضالة الهائمة على حافة
العرمان ...

لقد استطاعت الثروة المتدفقة من آبار الذهب الأسود ، أن تبني للغتربتين مساكن
طيبة ، حولها حدائق مزهرة غناء ، تصد عنها بعض لفح الهجير وعواصف الرمال ولطائف
الرياح السافيات !

ولم يشق على شركة الزيت أن تضيء منازل رجالها بالكهرباء ، وتكيف فيها الهواء ،
وتزودها « بالتليفون والراديو والفريجدير » ، لكنها لم تكن تستطيع - ولو ظفرت بمال
قارون وعثرت على كنوز سليمان - أن تنود عن الرجال الضجر والملال والوحشة ، وأن
تمس مساكنهم بتلك اللسة اللطيفة التي تتركها الأنثى حينما مست يداها ! أوتبت في
المساكن المزودة بالآلات التبريد والتسخين والإضاءة والتكييف ، روحاً من الأنس واللطف

والرقة والحنان ، كذلك التى تلقىها الزوجات والأمهات ! !
 هن اللواتى يجعلن المنازل بيوتاً وسكناً وبيعن الحياة فى ذلك الخراب اليابس ، وينبتن
 فى الأرض القاحلة الماحلة ، زهرات إنسانية يانعة ، تعطر الجو الصحراوى بأريج الطفولة
 الباسمة المتفتحة للحياة !
 ومن أجل هؤلاء الأطفال ، أنشئت المدارس والملاعب فى منطقة الزيت بالصحراء ،
 واستطاب الآباء مرارة الكفاح ، واستمروا طعم العيش مع وحشة الاغتراب .

ومضيت أنفوس مصرياً واحداً بين الرجال العاملين فى شركة الزيت ، فلم أجد !
 وقيل لى فنيا قيل : إن الجزيرة ألحت فى طلب مهندسين وأطباء وعمال من أبناء مصر .
 فلم يستجب لها أحداً كما استجاب آخرون : من الهند وإندونيسيا وإيران . وسورية ولبنان
 وفلسطين . وأوروبا وأمريكا . .
 لماذا رفض المصريون أن يستجيبوا لدعوة الجزيرة . مع أنها تلقاهم بترحاب حار
 لا يظفر به أجنبي . وتنزلهم بين أبنائها مكاناً عزيزاً تضن به على الغربين الغريب ؟
 لسبب بسيط ، هو أن المصريين يأتين الهجرة ولو إلى قطر شقيق . ويرفضن أن يتبعن
 أزواجهن ولو إلى بلاد العرب . مهما تكن المغريات (١) !
 وكنّ أولى بأن يفعلن . لأن حياتهن هناك لا يرهقها شعور بالغربة . فى بلاد تتكلم
 بلغتها . وندبن لها بالإسلام !

أليس من العجيب أن تعيش هناك غربيات أعجميات لا يعرفن حرفاً من العربية .
 ولا يؤذن لهن بأن يؤدين شعائر دينهن - إذ الجزيرة تحرم بناء الكنائس ودق النواقيس
 ودخول القسس والرهبان - فى الوقت الذى تأتى فيه تلك الحياة . مصريات ينزلن هناك
 بين أهل وجيران ، وإخوان فى الدين واللغة والقومية ؟
 أليس من العجيب أن ترضى بالعيش فى الظهران ، غريبة عصرية . قد تكون ولدت
 فى نيويورك أو روما أو باريس : ولا ترضى به مصرية قد تكون مولودة فى قلعة الكباش ،
 أو صفت تراب . أو زاوية الناعورة ، أو دشنا وفرشوط ؟

(١) كتبت هذا ، سنة ١٩٥٢ . قبل أن تلوح على أفقنا بوادر السعى إلى العمل فى الأقطار العربية الشقيقة ، إعارة
 أو هجرة .

كلا ، ليس في الأمر ما يستغرب ، فكذلك كانت نساؤنا من قديم الزمان . وأى هكذا خُلِقْنَ ، والأمر لله !

إن المصرية تأبى أن تترج من القاهرة إلى الجيزة ، أو من الإسكندرية إلى دمنهور . ويندر أن ترى قاهرة ترضى بالزواج من رجل يعيش في الريف . ولو كان من ملاك الأراضي وكبار الموظفين .

ويتعذر على شبابنا المتعلمين الذين يعملون في الأقاليم ، أن يجدوا زوجات صالحات . يحتملن العيش بعيداً عن أضواء العواصم ! وأعرف من فتياتنا المخطوبات من تشرط لإتمام عقد الزواج أن ينقل الخطيب إلى القاهرة .

وتستطيع إدارة الإحصاء أن تضع بين أيدينا أرقاماً لا تكاد تُصدق ، عن طالبي النقل إلى كبريات المدن !

فهل نعجب إذا لم نجد بيننا من تتبع زوجها إلى الصحراء في جزيرة العرب ؟ ! إنى لأذكر زوجات بعض الموظفين في إحدى المزارع النموذجية قرب القاهرة . في منطقة أشبه بالجنة ، قد رفضن أن يعشن هناك في (الفيلات) الأنيقة المضاء بالكهرياء . والمتصلة بالعاصمة بخطوط تليفونية مباشرة ! وآثرن جحيم المدينة على جنة الريف . وفي مجاهل إفريقية وآسيوية ، تعيش غريبات غريبات ، يفهمن حق الفهم دورهن في الحياة . ويقدرن واجبهن نحو رجالهن وأوطانهن !

فليتنا ندرك أن الغرب ، الظافر القاهر . يدين هؤلاء المغتربات بأكثر ما يتمتع به من نفوذ سياسي واقتصادي ، في أرضنا الطيبة التي اغتصبت زماناً . وشرقنا الذي غلب طويلاً واستبيح ! ! . .

الظهران : ١٩٥١ / ٢ / ١٠

جارة النبي . . .

« قلنا بانارُ كوني برداً وسلاماً على إبراهيم » .

سعيانا إلى الحرم النبوي في جلوة الفجر ، يحدونا دعاء السماء الذي ظلت مآذن المسجد الطاهر ترسله منذ نحو ألف وأربعمائة عام ، فتسرى به الملائكة ملء اللّٰثي ، وترُجِّمه الأطياف السارية على أجنحة من النور ، وتتجاوب به القمم والسفوح والأودية في رنين علوى النغم ساحر الأصدا ، فإذا الكون كله تسبيحة مؤمنة وترنيمه هائلة ! وإذ بلغنا باب المسجد ، خلعتا نعالنا وشرنا خُشْعاً نحو الروضة الشريفة ، وقد صفّا الحس وشفّ الشعور ورقّ القلب ، واندجت شخوصنا المتعبدة في ركب الأرواح اللطيفة بحرم النبي ، الحائمة حوله ، نكاد نميز فيها أطياف الصحابة الأبرار من المهاجرين والأنصار !

حتى إذا قُضيت الصلاة ، انتشر القوم خارج المسجد ساعين على رزقهم يتنغون من فضل الله ، وبقيت قلة من الذين انقطعوا عن الدنيا ، وآثروا على كل متاع فيها ، جوارّ الرسول الحبيب . وآخرون أرهقهم المموم والأحزان فلاذوا بنيههم الكريم ، يسألون الله تعالى بحق هذا النفس الطاهر في المكان الطاهر ، أن يرفع عنهم الكرب ويدفع السوء والبلاء . . .

وكننت قد اخترت مكاناً منفرداً في الحرم أتأمل ، وأحاول أن أستحضر الذي وعيتُ من مشاهد التاريخ الإسلامي منذ عام الهجرة ، إلى أن لبي المصطفى ، عليه الصلاة والسلام ، نداء ربه ، وثوى جسده الطاهر في هذه البقعة المباركة الباقية على الزمان ، مزاراً مقدماً للمسلمين من شتى أقطار الأرض .

ومرتني في مجلسي عدد من النسوة يظفن بالمقصورة الكريمة ، فلم ألق إليهن بالا . حتى إذا فرغن من طوافهن جلسن غير بعيد مني شاكيات داعيات ، فحاولت أن أصرف سمعي عن أصواتهن ودعواتهن كيما أفرغ لتأملاتي . لكنني ما لبثت أن سمعت صوت نشيج مختق ، رجّعت جواب الحرم فكان له صدى لايت ، وجئنا له حيناً حتى صرفنا عنه قارئ من قراء « المدينة » يتلو بعض قرآن الفجر .

وأدبرت رأسى ألتبس الباكىة ، فألفيتها إلى جانبى : امرأة نخيلة الجسم بادية الضعف والشحوب ، تنتفض فى ألم مكبوت وتحاول عبثاً أن تخرج أنفاسها المتلاحقة .
وأنكرتها النسوة من حولها فتركن لها المكان ، وبقيت وحدى إلى جانبها أرنو إليها فى رثاء وعطف ، حتى رفعت نحوى وجهها الشاحب المبلل بالدموع وهتفت بى فجأة :
- ادعى لى !

قلت فى حرارة وتأثر :

- الله معك !

فأشرق وجهها لحظة ، وبدا لى حينذاك أنها ليست من أهل الجزيرة ، فسألتها :
- غريبة أنتِ عن الديار ؟

أجابت وهى تشفق :

- وى ! غفر الله لى ، أنتكون غريبة مع جوار النبی ؟ ولكن لى فى بلاد بعيدة فلذة كبذ
غالية ، وأشعر بنار الشوق تأكل قلبى ، فأفرع إلى ربى لعله يردها برداً وسلاماً . هل
تحفظین یاستى كتاب الله ؟

قلت وأنا أعجب لانتقالها المفاجئ :

أرجو ، فإ الذى تبغین ؟

أجابت فى لهفة :

تقرئين لى قصة نار إبراهیم . فإنى أشعر كلما سمعتها براحة . .

فأدركت ماتعنى ، وتلوت عليها آيات إبراهیم من سورة الأنبياء :

« والله لأكيدن أصنامكم بعد أن تولوا مدبرين . فجعلهم جداداً إلا كبيراً لهم لهم لعلمهم إليه يرجعون . قالوا من فعل هذا بالهتنا إنه لمن الظالمين . قالوا سمعنا فنى يذكرهم يقال له إبراهیم . قالوا فاتوا به على أعين الناس لعلمهم يشهدون . قالوا آئت فعلت هذا بالهتنا يا إبراهیم . قال بل فعله كبيرهم هذا فاسألوهم إن كانوا ينطقون . فرجعوا إلى أنفسهم فقالوا إنكم أنتم الظالمون . ثم نكسوا على رؤوسهم لقد علمت ما هؤلاء ينطقون . قال أفتعبدون من دون الله ما لا ينفعكم شيئاً ولا يضركم . أف لكم ولما تعبدون من دون الله أفلا تعقلون . قالوا حرّقه وانصروا آلهتكم إن كنتم فاعلين . قلنا يانار كونى برداً وسلاماً على إبراهیم . وأرادوا به كيداً فجعلناهم الأخسرین . ونجيناہ ولوطاً إلى الأرض التى باركنا فيها للعالمين » .

صدق الله العظيم

هنالك انبسط أسارىها ، وبان عليها الارتفاع ، لكنها عادت فتجهمت وهمت
تسألني في خوف وشك :

- وهل ترين أني أبلغ عند الله منزلة سيدنا إبراهيم الخليل ؟ فأبيتُ عليها أن تيش من
روح الله ، ثم همت بالقيام معذرة بأني من قومي على موعد ، كي نسعى إلى « أحد » ثم
إلى « قباء »^(١) قبل أن ترتفع الشمس وتذهب الصخور والرمال .
فتوسلتُ إلى أن أبقي هنية ، ريثما تقص قصتها على :

نشأت في بلاد المغرب الأوسط ، بدوية حسنة ترعى الغنم . ومات أبواها وهي
صبية . فكفلها أقارب لها غلاظ الأكباد . لم يكادوا يرونها تتفتح للربيع ناضجة الجسم
رطبة العود ، حتى ركبهم همٌّ واستحوذ عليهم القلق ، فهم يترصدونها نائمة صاحبة ،
ويتعقبونها بالليل والنهار ، يحصون عليها أنفاسها ويؤولون حركاتها وإشارتها ، ويتبعون
مواقع نظراتها ومواضع خطواتها ، ويصغون إلى ما قد يندُّ عنها من هذر الأحلام في غفوة
النعاس أو غشية الحمى .

وسألتهم أن يرحموها بالخباء فلم يفعلوا ، إذ لم تسعف عليه بينهم وهم بدو من فقراء
الرعاة . وهكذا استقبلت ربيع العمر في ظلِّ رماح مشرعة ، تنتظر بها نظرة شاردة
أو ضحكة ناعمة . كي تمزق بدنها وتبعث به إلى القبر : أكرم مأوى للأنثى في شرايع
البداءة الجفاة !

ولم تكن تدري كيف تنأى عن مواطن الشبهات الظالملة ، فقد بدا أن قومها لم يكن
يرضهم منها أيُّ حال :

إن وجمتْ ، قيل محزنة أرقعها الانتظار ، وإن ابستْ قيل عاشقة لقيت الحبيب !
إن مرضتْ قيل مجفوة أضناها الهجر ، وإن صحَّتْ قيل راضية صفا لها الحب !
إن نامتْ قيل حاملة تهفو إلى لقاء طيف المحبوب ، وإن سهرتْ قيل مسهدة جفاها
الرقاد !

إن تجمعتْ قيل فاجرة تتيأ للقاء . وإن أهملتْ زينتها قيل ضالة رحل عنها من
تهواه ! !

(١) قباء : قرية على بعد ميلين جنوبي « المدينة » على مسار القاصد إلى مكة . نزل بها الرسول ﷺ في هجرته
التاريخية ، وبني بها أول مسجد في الإسلام .

وأنهكت هذه الحياة أعصابها حتى أوشكت أن تصاب بنبال ، فدعوا لها ضاربي الرمل وقارنى الكف ، كى يترعوا منها قهراً ذلك السر الأثيم الموهوم الذى تكتمه . وما كان سرها سوى هذا الصبا الريان الذى تفتح برغمها وازدهر .
وحين أعياهم أمراهم ، زعموا أن لها عاشقاً من الجن ، فاستحضروا الرقاة وضربوا الدفوف كى يبرئوها من مس الجان ، وما كان الذى بها سوى اللمسة الساحرة من فورة الربيع وحيوته الدافقة . .

• • •

ثم كان لهذا العذاب آخر . . .
أوهكذا ظنت وظنوا . .

زوجوها من أحد شيوخ القبائل المسنين ، فأراحوا أنفسهم من لعنة الشك وأراحوا قناتهم من محنة التردد ، وطاب لهم ولها أن يلدوا ربيعها المسئول عن كل ما لقيت ولقوا ، وأن يلقوا عليه زكاهم من ثلوج الشتاء ، تُخمد جذوته المتقدة وتذهب بعبيره الفياح ! لكنها راحة لم تطل . . .

فأكادت تضع وليداً جميلاً فى العام الثانى من زواجها حتى حامت الظنون حولها من جديد ، وكانت عشيرة الزوج هى التى أسامت فيها القول ، وكأنما كرهت أن تذهب هذه الصبية الغريبة وولدها الرضيع ، بمال شيخهم الهالك . واستطاع الزوج أن يحميها من ظلم العشيرة ويرد عنها أذاها ما عاش ، فلما مات أمسكت القبيلة عنها ولدها ، وسرحتها إلى قومها وحيدة خائبة ، تندب زوجها فى الأموات وولدها فى الأحياء !

ولم يحسن قومها استقبالها وهى تعود إليهم ذليلة مطرودة ، فأقامت بينهم ما أقامت كسيرة القلب والطرف ، تقضى النهار كله عاملة كادحة ، فإذا جن الليل انتبذت من مسامر الحى مكاناً قصياً وانطوت على أحزانها تحترها فى شجن صامت . .

حتى وفد على الحى ذات ليلة ، وافد غريب جاء من ديار بعيدة يسعى فى طريقه إلى الحجاز ، وقد كُتت قدماء من طول السرى فتزل بالقوم يلتمس القرى ربياً يريح بدنه المجهد ، ثم يعود فيضرب فى الأرض ساعياً إلى بيت الله . وأمضى فى ضيافة القوم ثلاث ليال لم يكف خلاها عن التغنى بشوقه إلى زيارة الرسول وحينه إلى الروضة الشريفة . .
هناك حيث ينسى المرء همومه وأحزانه ، ويمجد نفسه فى جوار النبی الحبيب عليه الصلاة والسلام .

وأخذتها عيناه في كل ليلة ، وهي تصفى إليه من ركنها المتزوى ، فرق قلبه لهذا الربيع الحزين وذاك الحسن الدابل . ولما عرف قصتها دعاها إلى أن تلوذ بالحرم الأمين لتلقى هناك أحبالها ، فاستجابت للدعاء دون تردد ، وتشبث بالرحيل معه ضارعة إلى قومها متوسلة ، مستعينة بالله على من يصدها عن سبيل الله .

قيل لها : لكن الإسلام لا يأذن لك بالحلج إلا في صحبة رجل من محارمك . فكادت تئس لولا أن تقدم الرجل الغريب يطلب يدها ، وقد راقى في عينيه وطاب له أن يتخذها تهنؤا عليه مشقة المسير ووحشة المسرى . . ثم انصرف بها يبغيان مكة المكرمة . ومن ثم إلى المدينة المنورة !

تبع زوجها مشوقة هائمة ، تريد أن تشكو إلى الله بثأها وحزنها وتنفض في ساحة الحرم همومها وأوجاعها . وقد هون عليها ذلك ، كل ما لقيت من عناء السفر ووعثاء الطريق ، وكلما نال منها الإعياء وأوشكت أن تنهار دون الغاية ، ترامت لها القبة الخضراء من بعيد ، فدبت القوة من جديد .

وبلغت غايتها وفيها رمق من حياة ، فأسندت كيائها المتداعى إلى الحرم المبارك ، فردت إليها الروح ، ورفعت رأسها إلى السماء مبتلة داعية .

وكانت تظن أن رحلتها ذات رجعة ، وأنها سوف تثوب إلى ديارها بعد أن تقضى من الأراضي المقدسة وطراً . لكن زوجها أنبأها عقب وصولها إلى « المدينة » أن لا رجعة ولا إياب ، بل المقام في دار الهجرة حتى أوان الرحيل إلى الدار الآخرة .

ومضى عام في إثر عام ، وهي تغدو إلى الحرم النبوى مع مطلع الفجر ، فتقيم به نهارها وقطعة من الليل ، ثم تأوى كارهة إلى قاعة صغيرة في « حارة الأغوات » حيث ترقد منصرفة عن زوجها ، لا تكاد تبادل حديثاً .

لقد شعرت بغتة أن كل ما بينها وبين هذا الرجل قد انتهى منذ استقر بها المقام في المدينة المنورة . وكانت تقول هذا الشعور بأنها ما تزوجته إلا لكي يؤذن لها في المسير إلى البقاع الطاهرة ، ثم تعود إلى بلاد تظل ولدها . أما وقد جاء بها إلى « المدينة » إلى غير عودة ، فليدعها إذن إلى جوار الرسول ، فما لها في غربتها ملاذ سواء !

لكنها في أعماقها كانت ترى هذا الزوج مسئولاً عما تعاني من جهد الشوق إلى ولدها : أوم يزين لها الزواج على غير هواها ، ويعددها السلو والنسيان ؟

أولم يزعم لها أنه قادر على أن يبدل حياتها الحزينة بأخرى لا تذوق فيها خوفاً ولا شجناً ؟ ما بال شوقها إلى ولدها يستعر لظاه حتى ما يهدأ لها بال ولا يقر لها قرار ؟ !
ما بالها لا تكاد عينها تقع على صاحبها حتى يثور بها لالعج الحنين إلى ابنها الثاني ، فتجد لهذا الحنين مثل لفح النار ولذع الجمر ؟

وكأنما وجدت أخيراً مَنْ تحمّل عليه إصرَ ما لقيت في حياتها الشقية منذ مات أبواها .
وَمَنْ تأخذه بذنب الذين اضطهدوها وسرقوا صباها ثم سرقوا ولدها . دون أن تجرؤ على الشكوى أو الاحتجاج !

واستشعرت لذلك نوعاً من الرضى ، ووجدت فيه منفذاً لقهرها المكبوت وأشجانها الراقدة ، فراحت تسأل صاحبها عن صباها المضطهد ، وريبعها الموهود . وأمومتها المحرومة المعذبة !

وكان الزوج يلقي ثورتها مستحقاً بها ساخراً بأحزانها . فلما استمرأت طعم القرد عليه لم يجد إلا العصا أداة لتأديبها وزجرها فكانت تهرب من الدار طولَ النهار مستجيبةً بحمى الحرم الأمين ، فما تكاد تدخل من « باب جبريل » القريب من مسكنها حتى تنسى عدوها . وتستغرق في صلواتها ودعائها . ضارعة إلى الله أن يجمعها بولدها ، أو فليطفئ برحمته وقدرته . هذه النار التي ترعى أحشاءها وتشوى كبدها . .

• • •

وتنفس الصبح وأنا في مجلسي أصغى إلى حديثها المر ، حتى إذا أفرغت شكاتها ونفست عن شجونها . أطرقت صامئة خاشعة . وبدأ لي أنها قد انصرفت عني تماماً . فألقيت عليها نظرة رحمة . ثم قمت أخطو وثيداً في ساحة الحرم . رانية إلى أسراب الحمام التي تمرح هناك آمنة لا تُراع !

هاجر

« إن الصفاً والمروة من شعائر الله فمن حج البيت
أو اعتمر فلا جناح عليه أن يطوف بهما . ومن
طوع خيراً فإن الله شاكرٌ عليم » .

صدق الله العظيم

انطلقت بنا السيارة من « جدة » مسرعة ، تريد أن تبلغ بنا « مكة » قبل أن يدركنا
الليل ويلفنا الظلام . وقد أخذتنا شبه غفوة حائلة ونحن نحدق في الجبال الصخرية التي تحف
بجانب الطريق في شموخ ، وأشعة الغروب تلقى ظلة رقيقة من ضوءها الشاحب على القمم
الجرداء ، ثم تنساب في رفق على السفوح العارية التي أرهقها قبض النهار .
وأوشكت السيارة أن تم سبعين كيلومتراً ونحن لا نرى على الأفق سوى الجبال الصم
والتلال المترابكة والأودية الضيقة المفروشة بالحصى والرمال .. ثم لاحت لنا « مكة » فجأة
من بين الفجاج ، فلم نمالك أن هتفنا من أعماق قلوبنا في ضراعة وابتهاال :
« لييك اللهم لييك .. »

ورددت البطاح أصداً هتافنا ، فخيّل إلينا أن الوادي قد امتلأ بحشود المسلمين
الأولين ، تندفق من ناحية الشمال لتدخل « مكة » فاتحة مليية ، وعلى رأسها « القصواء »
ناقة الرسول ، تعود إلى البلد الحرام بعد أن تسللت منه خفية إلى دار الهجرة قبل ثمانى
سنين ، ناجية بصاحبها ﷺ ، من كيد طواغيت المشركين ومطاردتهم الشرسة ..

وظفنا بالكعبة سبعاً ، ثم خرجنا نسعى بين الصفا والمروة حتى إذا أنعمنا المسعى جلستُ
على درج المروة ، تجاه الوادي ، وقد طاب لى حينذاك أن أعترل الصحب زاهدةً فيما شغلوا
به من حديث .

ولم أكن حتى تلك اللحظة ، أفكر في شىء سوى هذا التاريخ الرائع الممتد الذى صنعه
أمرؤ يقيم ، شهدته بطحاء مكة يرعى الغنم ، أو يخرج من القوافل أجيراً أميناً لبعض أثرياء
التجار من قريش . ثم اصطفاه الله رسولاً ، فما مات حتى وطئ بقدميه أصنام الكعبة ،

وشهد بعينيه راية الإسلام تحقق على كل بقعة في أرض العرب ، وسم بأذنيه « بلالاً » ينادى من فوق سطح الكعبة : « الله أكبر » ، فيستجيب له بالجزيرة مئات الألوف ممن دخلوا في دين الله أفواجا . .

أجل ما كنت حتى تلك اللحظة التي أتممت فيها المسعى ، أفكر في شيء سوى هذا التاريخ المجيد الذي صنعه أمي يتيم ، هاجر من بلده ذات مساء مع صاحب له شيخ مُسنّ ، فما مضى على هجرته ربع قرن حتى كانت دعوته تزلزل عروش الأباطرة والأكاسرة ، وتذك حصون الطغاة والجبابرة . .

غير أني لم أكد أجلس على درج « اللوة » الصخرى وأرى الساعين يهرولون أمامي داعين مكبرين ، حتى توارت عني مشاهد ذلك التاريخ الإسلامي ، ولم أعد ألمح سوى طيف « هاجر » وهي تهول في هذا الوادي باحثة عن قطرة ماء لتروى غلة طفلها الغالي « إسماعيل » :

خرجت به من خيام أبيه إبراهيم - عليه السلام - طريدة منبوذة ، كلُّ ذنبها أنها رزقت غلاماً ، وسيدتها « سارة » ، امرأة إبراهيم ، عاقر عقيم ! وما كانت « هاجر » هي التي سعت إلى إبراهيم أو أغرته بالزواج منها لتهب ولداً ، وإنما أذنت السيدة « سارة » بذلك في لحظة بأس ، ورضيت أن تشاركها جاريته المصرية في زوجها . لعل ذلك يروى غلته ويهدئ من شوقه الطاغى إلى الأبناء ! ولعلها ما أذنت بذلك إلا وهي ترجو ألا تثمر التجربة ، فيكف الزوج عن ذكر الولد ، ويئد في أعماقه أمل الأبوة المحرومة الراجية . لكن التجربة لم تحقق ، وشاء الله أن تحمل « هاجر » فأحست السيدة العاقر لذلك مرارة كادت تفسد عليها حياتها ، وتُخيل إليها أنها صغرت في عيني جارتها ، فشكت ذلك إلى زوجها قائلة :

- ظلمى عليك ! أنا دفعتُ جاريتي إليك فلما حملتُ صغرتُ في عينها ! يقضى الربُّ

بيني وبينك .

قال إبراهيم :

- هي ذى جاريتك في يدك ، فافعل بها ما يحسن في عينيك .

فلم تكد سارة تنظر بهذا التفويض من زوجها ، حتى أسرفت في إذلال هاجر إلى أن هربت منها وهامت على وجهها في البرية ، ثم عادت بعد حين فوضعت في حجر إبراهيم ولده إسماعيل .

ولم تنطق سارة على ذلك صبراً ، فإزالت بإبراهيم غرضه وتغريه أن يطرد هذه الجارية وابنتها ، وهو يتردد مشفقاً . ثم استجاب لامرأته آخر الأمر ، ومضى بهاجر متطلقاً من خيامه ، وراح يضرب في الصحراء وهي تسير من ورائه صامته مستسلمة ، متشبثة بولدها الرضيع ، لا تكاد تفكر في شيء إلا في نجاتها به . . .

وأبعد إبراهيم في السير حتى بلغ أطلال البيت العتيق وسط المهمة القفر ، فوضع هناك هاجر وإسماعيل وترك لها جراباً فيه تمر ، وسقاء فيه ماء . ثم اتنى ليعود من حيث جاء . وتلفتت الأم حولها فأفرعها القفر الموحش لا أثر فيه لحياة ، وجروّت على أن تحطو وراء السيد لتسأله مسترحمة :

- أين تمضي وتتركتنا بهذا الوادي للمقر حيث لا ديار ولا نافخ نار ؟

فلم يجب . .

وأعادت سؤالها مرة ، واثنين وثلاثاً ، وهو منصرف عنها صامت لا يجب ! ولم يبق لها من بعد ذاك إلا أن تتساءل :

- آله أمرك بهذا ؟ !

وعندئذ أجاب إبراهيم : نعم .

ولم يزد . . .

قالت هاجر : إذن فالله لا يضيعنا . . . (١)

ورجعت إلى موضعها الأول عند أطلال البيت ، على حين مضى هو في طريقه لا يلتفت ، إلى أن عثت ثبّة الوادي فاستقبل البيت العتيق بوجهه ودعا ربه في خشوع : « ربنا إني أسئكت من ذريتي بواد غير ذي زرع عند بيتك المحرم ، ربنا ليقيموا الصلاة ، فاجعل أفئدة من الناس تهوي إليهم وارزقهم من الثمرات لعلهم يشكروا » . واستأنف مسيره راجعاً . . .

ونجى على الفلاة صمت مرهق لم يلبث أن مزقه لهات أم عطشى ، وصياح رضيع جائع جف النبع الذي يغذوه ويرويه .

(١) مستخلص من (التوراة) و (تاريخ مكة) للأزرق . أما القرآن الكريم فلا يتعلق بتفصيل القصص ، تركيزاً على جوهر الموقف ومناط الاعتبار .

لقد نفذ الزاد القليل الذى فى الجراب ، وكذلك نفذ ما فى السقاء ، وتلاحقت صيحات الصغير وبدأ يتلوى من ظمأ وجوع ، فكرته أمه وانطلقت تبحث له عن قطرة ماء . .

وحملتْها قدماها إلى جبل « الصفا » هناك ، فصعدت فوقه لتشرف من عل على الوادى ، راجية أن ترى إنساناً أو أثر الحياة ، فلما لم تر إلا الحلاء المقفر ، هبطت إلى الوادى وهولت حتى أتت « المروة » فرجّت على السفح لعلها ترى أحداً ، ولا أحد . . وظلت هكذا تهول من هنا إلى هناك ، ساعة بين الصفا والمروة . مرتين ، وثلاثاً ، وخمساً ، وسبعاً ، حتى نال منها الجهد وأشرفت على الهلاك من ظمأ وإعياء . فتهاكتْ على الصخور منهكة القوى لا تجرؤ على الدنو من صغيرها المعذب .

وإذ تنهى إليها أنيته ، وغطّت رأسها بلفاعها كيلا ترى ولا تسمع فقد كان سماع حشرجته وهو يختصر ، ورؤيته وهو يموت ، أقسى مما تحتمله بشريتها أو تطيقه أمومتها !

• • •

ووجعت السماء حيناً وهى تطل على المشهد الفاجع : مشهد رضيع يهلك ظمأ وأم تأبى أن تتزود منه بنظرة وداع ، بل تصد عنه وبها من اللفظة عليه مثل الجنون ! وتجهمت الصخور وهى تردد صدى صوت الأم الواهن : « لا أنظر موت الولد » محتلّطاً باللهات والأنين ، وبدأ كأن شبح الموت يلقى على الوادى ظلاله الكثبية وهو يدنو من الطريدين المعذبين ، لبتزع منها الحفقة الأخيرة من الحياة !

لكن شعاعاً من رحمة الله لاح بغتة أمام « هاجر » فرحفت إلى حيث هداها الله ، وثم . . . ألفت نبعا يفيض ماء !

وأكبّت عليه تغرف منه ، حتى إذا ردتْ إليها الروح أحست باللبن يملأ ثديها ، فألقمتْه طفلها المشرف على الهلاك .

ودبّت الحياة فيه من جديد ، وعاش ليعمر هذه البقعة المقفرة بينه وأحفاده . واستجاب الله لدعاء إبراهيم فإذا أفئدة من الناس تهوى إلى الوادى غير ذى الزرع ، وإذا النبع - بئر زمزم - يجذب القوافل فى آثار الرعاة ، فتغدو « مكة » على مر السنين المركز الرئيسى للتجارة فى شبه الجزيرة .

عاش إسماعيل ليرفع هو وأبوه القواعد من البيت العتيق ، فيكون قبله أنظار العابدين فى شتى أقطار الأرض ، ومهوى أفئدتهم فى كل حين ، يحجون إليه من الشرق والغرب ،

ومن الشمال والجنوب ، ليظفوا بالبيت ويسعوا مهولين بين « الصفا والمروة » حيث سعت « هاجر » مهولة من زمن موغل في القدم ، تبحث لوليدها عن قطرة ماء .
وهذه هي بئر زمزم ، ماتزال في مكانها قريباً من قبر هاجر ، يتراحم عليها الحجيج ليظفروا من نبعها بجرعة مباركة ، كذلك التي رَدَّت الروح إلى أم هالكة ، ورضيع يحضّر !

• • •

ياله من تاريخ ! . .
إن جهاد أم في سبيل ولیدها ، قد تقبلته السماء عبادةً وقرى ، فجعلت من تلك القصة الإنسانية المؤثرة للأمم ، سِفْراً يتلى في « الكتاب المقدس » وجعلت من دعاء إبراهيم آية منزلة في « القرآن الكريم » . . .
وكان مسعى هاجر وهولتها بين الصفا والمروة سبعة أشواط ، عزيزاً على الإسلام ، كما كان عزيزاً على الأجيال من قبله ، فدخل في الشريعة الإسلامية شعيرة من شعائر الله في الحج والعمرة .

وظلت قصتها ملء التاريخ الديني ، على مر الزمان .
وما كانت « هاجر » سوى أمة طريفة مضطهدة ، نُبِذت مع ولیدها بالعراء في الفلاة الموحشة ، بوادٍ غير ذي زرع .

لكنها أم !

وكانت تلك الأمومة حسبها عبادة وقرباناً !

آمنة

« إلى التي عجز الرق عن استبعاد قلبها ووأد
إنسانيتها ، وإقناعها بأن لاحقاً لها في معاناة
عواطف البشر ، نحيةً ، ورتاء... » .

بلغنا في رحلتنا بجزيرة العرب منطقة البحرين في أقصى الشرق . وبدأ لي أن أزور
بعض العرييات الأصيلات ، المحجبات وراء أسوار منيعة من الأعراف والتقاليد .
فصحبته صديقة كريمة إلى بعض من تعرف من سيدات القوم .
وحملتنا السيارة إلى دار صاحبة لها هناك ، فسعى خادم بين أيدينا عبر ممر طويل يُفضى
إلى فناء داخلي ، تفتّح عليه قاعةُ الاستقبال للحريم ، بعيداً عن الطريق العام .
وألقينا في استقبالنا شابةً مليحة سمراء ، قد انكأَت على إحدى الحشايا المنسقة فوق
السجاد العجمي . فنهضت لتحيّتنا ، ثم جلست قريباً من الباب ، وعلى وجهها ظل
ابتهامة نخيلة متعبة .

قالت صاحبتى تقدمها إليّ : امرأة السيد .

ثم التفتت إليها قائلة :

— ما شاء الله يا آمنة ! أراك بصحة وعافية ، وكنت لما لقيتك آخر مرة ، عليّة
تشكين .

فلاح على وجه « آمنة » ما يُشبه التساؤل ، وقالت لصاحبتى :

— كذا ترينى يا ست ؟ حمداً لربى ، أنا بنجر ما بقيت في هذى الدار .

قالت لها السيدة :

— ولكن دارك غير بعيدة فيما أعلم .

فانتفضت « آمنة » وهى تقول فى انفعال غاضب :

— ما أعرف لى داراً غير هاذاك المكان ، وليس لى فى سواء مأرب ، ولا لى عنه

منصرف ، حتى الموت !

وصمتنا لحظة ، ثم عادت صاحبتى تسأل :

- وزوجك يا آمنة ؟ -

قالت الشابة وفي نظراتها مزيجٌ من الرعب والاحتقار :

- ذاك المخلوق البغيض ؟ ! ما عاد لي به شأن . طلقني منه سيدى ، له الشكر والله الحمد .

وكنْتُ أتتبع هذا الحوار وأنا أعجب لما أسمع : أو لم تقل صاحبتى إن آمنة امرأة السيد ؟ فما هذا الحديث العجيب عن دار أخرى وزوج بغيض ؟ وما مكانها من هذا البيت إذن ؟ وفيم تشبها به إن لم تكن ربه ؟ وكيف يُطلقها السيد من زوجها ؟ ومن يكون الزوجُ إن لم يكن السيد ؟

ولحظتُ صاحبتى ما أنا فيه من حيرة فتبسّمت ضاحكة تقول :

- لا يدهشك ما سمعت . أصل الحكاية أن « آمنة » عاشت مع السيد سنين عدداً ، زوجة جارية . ثم تزوج أخيراً من إحدى حرائر « المدينة » وزوج آمنة من صانع أجير ، أعجمى غريب . ويبدو أن آمنة لم ترض عن هذا الزواج . فعادت إلى بيت سيدها ، وهذه هى تقول إنها لا تبغى عنه حوْلاً .

رددت آمنة فى إصرار :

- هو ما سمعت : لن أتحول عن هذى الدار إلا إلى القبر . لقد أخرجونى مرة كرهاً ، ولن يخرجونى منها ثانية وفى نفس ! أعرف أنى جارية ، أمة . مُستعبدة ، ليس لي أن أرغمهم على بقاءى هنا ، لكنى أعرف أيضاً أنى لن أطيّق الخروج ، ولن أرغم عليه حياة ، فليقتلونى إذا شاموا ، أو . . . !

وبرت حديثها بغتة . إذ دخلت السيدة ، فى تلك اللحظة لتحبى ضيقها وانكششت « آمنة » فى مكانها تلقى على السيدة وعليها نظرات طويلة ، بدون أن تنبس ببنت شفة . ونظرتُ أنا إلى السيدة : عروس فى ريعان الصبا ، رقيقة ناعمة ، أنيقة معطرة ، تميس فى دلال وزهو ، وقد رشقت زهرتين فى شعرها الفاحم المتسوج ، وارتدت ثوباً من « الدانتلا » البيضاء ، وأزينت كأنها تنهأ لجلوة العرس !

وجيء لنا بالشاى والفاكهة فأصبنا منها ما اشتيناه ، ودار بيننا حديث هين عن دنيا النساء .

وعلمتُ أنها من بنات « المدينة » وقد أمضت فيها طفولتها وصباها ، لم تخرج منها قط إلا مرة واحدة منذ ستة أشهر ، يوم جاء زوجها فحملها بالطائرة إلى ساحل الخليج .

ولما سألتها إن كانت أشفت من ركوب الطائرة ؟ أجابت في مرح :
 - هيبني أشفت ، فماذا بالله كنت صانعة ؟ إن الرحلة من المدينة إلى مكة على ظهور
 الإبل ، تستغرق عشرة أيام ، فما بالك بالرحلة إلى نجد فالأحساء ؟ هل تريها ترهة طيبة
 لعروس لم تبحر « المدينة » قط ؟

فضحكتنا جميعاً إلا أمانة ! قالت وهي تعبت بخيوط لفاعها :
 - أما أنا فما استطعت . سألتني سیدی أن أصحبه إلى المدينة يوم طار إليها ليأتني بالسيدة
 العروس ، فرجوته أن يعفني من هذه الرحلة ، إذ أتني أخاف ركوب الجو . . .
 وصمتت بعد ذلك فلم تقل شيئاً ، حتى قامت السيدة لبعض شأنها فاستطردت « أمانة »
 قائلة وهي تنظر إلي :

- تالله ياسي ما كان بي من خوف ، وإنما ضعفت فكرهت أن أشهد بعيني جلوة
 العروس .

فسألتها صاحبتني :
 - وأى شيء في ذلك يا أمانة ؟ قسمة ونصيب ، وقدر يجري عليك وعلى مثيلتك ،
 أفا كنت تتوقعين أن تدخل هذه الدار سواك ؟
 أجابت في بطء :

- أجل توقعته ذلك . . وتوقعت أن يلفظني هذا المكان على غير رغبتي وهواي !
 وبالي من حمقاء ! أقول رغبتي وهواي . . وإني لأعلم أن ليس لي ومثيلاقي حق الرغبة
 والهوى ! ! لكنه الضعف ، فاغفرا لي . .
 وقلت وأنا أصدق في عينيها :

- لا حاجة بك يا أمانة إلى الاستغفار ، فما أتممت ولا أذنبت . إني أفهمك يا أختي ،
 كما أفهم نفسي .

فوجعت لحظة كأنها لا تصدق أذنيها ، على حين مضيت أقول :
 - ولم لا يا أمانة ؟ أليس لك عواطف أنثى وطبيعة بشر ؟
 أولم تلدك أمك مخلوقة سوية من الفصيلة الآدمية التي نتمى إليها ؟
 قتلل وجهها غبطة ، وامتلاّت عيناها بالدموع ، لكن وجوماها عاودها بعد قليل
 فنهدت قائلة :

- لست واحسرتها أعرف أبوي ، غير أني لا أفأ أتملكني وليدة في حضن أم ! وكلما

(يوزع مجاناً ولا يباع)

رأيتُ طفلاً يُسلم نفسه إلى صدر أمه ويغفو هائناً بين ذراعيها ، هاجت شجوني وقلت لنفسى : « كذلك كنت من قبل ! » ثم يشدُّنى واقى فأرائى ولا أمَّ لى ! نسج الزمان بينى وبينها حباً كثيفاً لا ينفذ منها شعاع ولا يبدو من ورائها شىء .
وأعسكتُ عن الكلام ربياً دخلت السيدة وأخذتُ مكانها بيننا فاستأنفت « آمنة » حديثها قائلة لى :

- سمعتك ياست تحداثين عن رغبتك فى زيارة أحياء البلدة . لو شئت لأذنت لى فى صحبتك الآن ، ولن تستغرق رحلتنا سوى ساعة أو بعض ساعة .
فأدركتُ على الفور أنها تريد أن تتطلق معى خارج الدار ، لتفضى إلى بهومها . ولم أتردد ، بل استأذنت مضيفتى وصاحبتى ، وخرجتُ مع آمنة .
وتركتُ لها أن توجه سائق السيارة إلى حيث تبغى ، فانطلقت بنا إلى الحلاء ، على حافة الصحراء .
وقادتنى إلى مكان منعزل بين كتيان الرمال وراء جبل الظهران ، ثم راحت تكمل رواية المأساة :

لم تعرف عن نشأتها الأولى سوى ذكرى غامضة لطفلة غريبة لاهية ، ضلَّت طريقها إلى أمها فى زحام كبير لا تدرى اليوم إن كان زحمة سوق أو احتفالاً بعيد . وألقت نفسها بعد أيام تعبر البحر على ظهر سفينة كبيرة ، ثم تُسلم إلى رجل غريب يمضى بها على راحلته فى سفرة عبر الصحراء ، استغرقت نحو أسبوعين قبل أن تلقى بها فى « مدينة الرسول » لتعيش هناك أعواماً ، وتلقى الدروس الأولى فى مدرسة الرق وسوق العيد ! !

ولم تكن الدروس فى مبدأ الأمر شاقة ولا مرهقة ، فقد اكنى السادة من الوليدة بأن تلاعب صبية الدار ، وأن تلازمهم كظلمهم أقاموا فى البيت أو انطلقوا إلى الملاعب . وكان طعم الحياة هكذا سائفاً مقبولاً ، فإن السادة الصغار لم يكونوا يجلدون حرجاً فى أن تشاركهم اللعب ، أو يرون فيها غير رفيقة صباً وزميلة ملعب . حتى شبت وشبوا ، فإذا بها تتزع من بينهم . وتُدفع إلى قوم غرباء ، يرحدون بها من جديد عبر اليد والقفار . . .

وعبثاً حاولت أن تبقى مع من حسبهم قومها ، وعبثاً حاول أترباها أن يحملوا أهلهم على الإبقاء عليها ، فقد بدا كأن الأمر مقرر لا يحتمل مناقشة أو رجاء ! ولما حانت ساعة الرحيل نهلت الصبية عند باب الدار تريد أن تملأ عينها من منزل صباها ورفاق حداثتها ، فحالت

الدموع بينها وبين ما تريد . هنالك اندفع قتي من الرفاق يهتف بها ألا تحزن ، فإنه ماض معها إلى حيث يُسار بها !

وأشرقت أساريرها بعد تجهم ، على حين مضى الصبي يستأذن خالته في السفر - وكانت أمه قد مانت قبل عام ، وجاءت أختها فشغلت مكانها من الدار .

ولم تكد الحالة تسمع حديثه عن رغبته في مرافقة الوليدة حتى قهقهت ضاحكة ، ثم تطوعت فألقت عليها درساً في الفارق الرهيب بين السادة والعبيد .

وكانت تلك هي المرة الأولى التي تسمع فيها الفتاة أن من البشر ما يباع ويشترى ، دون أن يكون له من أمره شيء ، أى شيء !

وأدركت أنها من هذا الجنس المنبوذ الذي لا أهل له ، ولا وطن ، ولا أمس ، ولا يوم ، ولا غد . .

وعراها وجوم ذاهل ، فاستسلمت لما يُراد بها في ذلة ، واستقبلت طريقها المجهول دون أن تلقى كلمة وداع للسيد الصغير الذي أعجزه أن يحميها من مصيرها المحتوم ، فاشتى يبكي لها ، وعليها . . .

وأعفاها ذهولها المبالغت من وطأة الإحساس بالحنّة ، أو لعل وضعها الأليم قد ألغى حقها في مثل هذا الإحساس .

حتى إذا عاودها وعيها بعد أيام ، تلفتت وراءها تلتئمس أطلال عالمها الماضي ، فلم تجد سوى الصحراء الممتدة إلى غير مدى : غامضة كثيفة ، موحشة جرداء . .

وعادت تنظر أمامها متسائلة عن المصير المنتظر ، فلم تجد سوى المتاهة الضالة العمياء ! وتناهى إليها في تلك اللحظة ، صوتٌ حادى القافلة يبعد الإبل الرّى والراحة بعد الرحلة المجهدة ، فطاب لها أن تبكي . لكن نظرة صارمة من وجه المشتري الغريب ، أمسكت الدموع في مقلتيها .

وتنمت آنذاك لو أنها ناقة في القطيع ! إذن لوجدت إلى جانبها من يحدهوها في رفق ، ويغني لها في حنان ، ويعدّها الراحة والظلّ والرّى . . .

وهنا لم تقو « أمة » على المضى في الحديث ، فتركها تبكي . حتى إذا أراحها البكاء استأنفت الكلام قائلة :

« ظلت القافلة تضرب في البيداء أياماً وليالي حتى أشرفت على إحدى القرى ، وآن لنا أن نخط الرحال .

وقادنى الغرب إلى دار رجة ، حيث أسلمنى إلى سيد كهل هناك ، ففُرس السيد في وجهى حيناً ، ثم أسلمنى بدوره إلى القائمة على شئون الدار . وبدأتُ عهداً جديداً ، شتان ما بينه وبين العهد الذى كان .

بدت لى الدار موحشة خراباً على الرغم من ضجيج النسوة اللواتى كن يملأنها . لأنى افترقت فيها الصبية والأطفال ، وألفتينى أعيش وسط جمع متناكر من النساء ! كن أربعاً ، متفاوتات السن ، مختلفات السحنة واللون ، لكنهن ماثلات في الزى والمظهر والمستوى . وقد حسبتهن زوجات السيد ، لكنى ما لبثت أن عرفت أنهن جميعاً من الإماء ، جاء بهن السيد واحدة بعد أخرى ، يرجو أن تلد له إحداهن ولداً ، فلم يحقق الله الرجاء .

وكانت هناك خامسة . سبقتهن جميعاً إلى بيت السيد . ثم تقدم بها العمر فتركت مكانها في الحرم . وتفرغت لخدمة الدار . يعاونها جمعٌ من العبد . وإلى هذه الأمة الكهلة ، ترك السيد أمرى ، فقامت بمهمة إعدادى للمحل الذى ينتظرنى بين الجوارى الأربع .

ولم يستغرق هذا الإعداد سوى عام واحد : ألفتينى بعده أنفرد بغرفة خاصة إلى جانب الغرف الأربع ، وأحظى من دون الزميلات بأوفر نصيب من عناية السيد واهتمامه ! واستسلمت لحياى الجديدة ، وقد أرضانى أن أكون موضع الغيرة والحسد ، فما عهدتُ الجوارى من سيدهن مثل تلك المعاملة الرقيقة التى أوترتُ بها :

كنت إذا شعرت بوعكة ، حملنى السيدُ بين ذراعيه إلى فراشى وسهر على رعايتى ، يسقبنى الدواء ، ويملاُ غرفتى بأطيب المأكولات .

وكان إذا سافر ، عاد إلى بادية اللهفة ، وملُ يديه غالى الهدايا من ثياب وحلى وطيب .

وكاد هذا التدليل لينسى أنى أمّة ، لولا بقية من المرارة كنت أشعر بها في فمى كلما ذكرتُ اللحظة الرهيبة التى ودّعت فيها صباى الخلى ، ولقّنت الدرس الأول عن محنة الرقى . .

أجل ، كدتُ لأنسى . . لكن الزمان لم يسمح لمثلئ بذلك .

سافر السيد يوماً إلى الشام حيث غاب أشهراً ثلاثة أرهقني فيها انتظاره ، فتشاغلت بتصور لفتته عليّ ، حين يثوب من سفره مثقلاً بشوقه ، وهداياه .
وقد آب من سفره . . .

وكانت هديته الواحدة إلينا جميعاً ، أمة جديدة أنزلها المنزل الأول الذي كان لي ، وادخر لها مآكان يؤثري به من رعاية وتدليل !
وازووت في الدار مقهورةً أحاول أن أستسلم ، فما كان من حق أن أثور أو أحتج ، أو أغضب ، أو أتألم !

حاولت أن أحتمل إذلال المحظية الجديدة وشاة الأربع القديمات ، وأن أصغى إلى نصيح صديقتي الأمة العجوز التي حرصت على أن تميت حسي رحمة بي ، فما يجدى الألم فيما لا يدلنا فيه ولا طاقة لنا على تغييره !

أجل حاولت ، وسهرت الليالي في كفاح ألم غايته أن أخنق بشربتي وأعطل مشاعري ، حتى أفلحت في أن أهيل فوق قلبي وروحي أكواماً من رماد المدارة والتصير والاحتمال .

لكن هذه الأكوام انهارت بغتة ذات ليلة ، حيناً رأيت السيد في غرفتي التي هجرها نصف عام !

وكان بيننا موقف ألم ، عنيف مثير : أصرّ على أن أبقى حيث كنت ، كما فعلت زميلات لي من قبل . وأصررت على أن يبيعني ليعفيني من العيش في ذباك الجحيم . قال مهدداً :

- لو ظلمت على عنادك ، يمتك لبعض الرعاة الأجلاف .

فهتفت به متوسلة :

- افعل ! افعل بالله . . إن العيشة الجافية الغليظة الخشنة في مضارب البدو ، أجمل

في عيني من البقاء في هذه الدار الرحبة ، رافلة في حلال من حرير !

فاشترط لكي بفعل ، أن أكون له كما كنت من قبل : الأمة المطيعة الوديعه ، ريثما يختار لي من يشربني ويدفع الثمن .

• • •

وجاء المشتري ، وكان شاباً مهذباً من رجال الحكومة ، مرّبنا في رحلة له إلى نجد ، وكنت أظن أن موقف الوداع هذه المرة أهون من سابقتها ، ولذلك عجمت حين شعرت

بشجن عميق بملأ نفسي ، لما قبلتُ يدَ سيدى للمرة الأخيرة ، وحيثُ صديقى الأُمّة العجوز ، ورفيقاى اللواتى أحطن فى مودعاتٍ داعيات .

ولم أظن أن أطيل النظر إلى غرقى التى تلتفتى صبيةً غريبة ، وأخرجتنى إلى الدنيا بعد ست سنين ، شابة قد شربت الكأس حتى الخلالة ، وبلت عيشة النساء ، واكتوت بنار الهجر والغيرة والقهر .

وذكرتنى رحلتى إلى « نجد » برحلتى الأولى من المدينة ، فلبثت أيام السفر صامتة حزينة ، وأشهد أن سيدى الجديد كان رفيقاً فى طُوال الطريق ، لم يضق بوجعوى وانقباضى ، بل تركنى أجترَ أحزانى فى هدوء !

حتى حططنا الرحال فى « الأحساء » فادهشنى ألا أجد فى الدار امرأة سوى .
وانتفلى سيدى صاحبةً له ، وزوجة . وربة بيت . ففتح له قلبى المغلق ، ودقت لأول مرة طعم الحب ، واستمرأت حلاوة هذا الرق الجديد ، فأنيةً فى السيد الحبيب ، وامتد فى هذا الحلم الهنىء حتى أتم سبع سنين . . .
ثم كانت اليقظة الفاجعة !

أنكر الناس على رُجلى أن يقنع بأمةٍ عقيم ، وزينوا له أن يأتى بأخرى قد تُنبِت البذرة التى عجز كيانى المجدّب عن إنباتها .

وكان لكلام الناس فى أذن سيدى وقع السحر ، فطار إلى « المدينة » وعاد بعروس من الحرائر ، حملت له البذرة المشتهة ، ولم يهن عليه أن يبيعنى ، فأخرجنى إلى دار قريبة ، زوجةً لصانع أجير .

وحاولتُ هذه المرة أيضاً أن أستسلم لِقَدْرِى ، لولا هذا القلب الذى يخفق بين ضلوعى ، متشبثاً بالدار التى أظلتنى سبع سنوات ، ومتعلقاً بالرجل الذى كان لى السيد والأب والأخ والزوج والحبيب !

قال لى سيدى : صبراً يا أمانة ، فقد تألفين العيش مع زوجك على مر الأيام .
لكن الأيام مرّت والشهور ، وأنا أزداد نفوراً من هذا المخلوق ، واشتمتازاً ومقتاً .
هربت منه ثلاث مرات ، فكان سيدى يردنى إليه فى كل مرة ، ويوصينى بمزيد من الصبر والاحتفال .

حتى غلب الصبرُ ونفذ الاحتمال ، فأيتت على الزوج الكره أن يمضى . ولما حاول أن يُخضعنى بالقوة ، عدوتُ هاربةً فى جوف الليل ، ولذت بدارى الأولى ضارعةً إلى السيدة

أن تدعني أعيش لها أمة خادمة منبوذة ، أو فلنأمر السيد بانتزاع روحى من جسدى إذا
شأمتُ ألا أبقي تحت سقف هذا البيت .
واستجابوا لى ، فكان الطلاق والخلاص . وتُركتُ حيثُ أريد ، مكفيةً بأن أسمع
صوت سيدى ، وأرى وجهه ولو من بعيد . . .
وذاك حسبى من دنياى . .

قلت لأمنة ونحن عائدتان إلى الدار :
- ترين يا آمنة ، لو وهبك السيد حريتك . . .
فلم تدعنى أكمل العبارة ، بل قاطعتنى فى مرارة :
- وماذا أفعل بهذه الحرية ؟ أى مكان لى على هذه الأرض إذا لفظتنى الدار التى
كانت لى يوماً جنة الحب ؟ ما انتفاعى بحياتى كلها ، وقلبى مصفد بأغلال رقه وهواه ؟
ثم صمتت ، حتى إذا اقتربنا من البيت أُكِّبْتُ على يدى تقبلها وهى تهمس :
- شكراً ياستى ، ألف شكر ! كنت كريمة إذ رأيت فىنا معشر الإماء ، مخلوقات بشرية
ذات قلوب ، وأصغيت إلى واحدة عجز الرق عن تعطيل حواسها وحق عواطفها وإقناعها
بأن لاحق لها فى الحس أو التألم ، أو الحب ، أو البغض .
وغابت « آمنة » عن عيى ، فلم أرها حتى همت بمغادرة الدار ، وإذ ذاك لحنها تخطو
نحونا شاحبة متداعية ، ثم تقف بباب العربة لتقول :
- فى أمان الله . . .

أصدقاء من الجزيرة

من بعيد

أكتب هذا وما تزال ملء مسمعى أصداً آتية من بعيد ، لسمر أدنى تمتع ، ملأ إحدى أمسياتنا الحافلة في شرق الجزيرة حين اجتمعنا بإخواننا علماء « القطيف » ، وأدبائها على ساحل الخليج .

• • •

كانت زيارتنا لهذه المنطقة النائية على غير موعد ، فإدار بجلدنا ونحن نتياً للسفر إلى جزيرة العرب ، أننا قادرون على أن نبلغ أقصى مشرقها . في رحلة ضئيلة الزاد ، لولا ضيافة جلالة عاهل الجزيرة ، هيأت لنا أن نذهب حيث شئنا على متن الطائرة ، فطويت لنا الأبعاد واستطعنا أن نتقل من الحجاز إلى نجد فالأحساء فالخليج . . . هنالك ذكرنا « القطيف » فيما ذكرنا ، ورأينا حقاً علينا أن نلم بمكان لعب في تاريخنا الديني والسياسي والأدبي دوراً ذا بال .

وما كان يُغفر لنا أن نكون بالأحساء ثم لا نزور منطقة البحرين التي كانت منزل « بكر بن وائل ، وعبد القيس » وفي ربوعها نشأ شعراء فحول ، لهم في الأدب العربي مكان أي مكان . ومن وراء مرتفع الصَّمَان^(١) الصخرى الذي يتوسط بينها وبين الدهناء فيعزلها عن نجد ، تسالتُ جموعُ « القرامطة »^(٢) في القرن الثالث الهجري ، حتى إذا جاوزوا الأحساء اندفعوا كأعصار مارد ، يُلقون الرعب في القلوب ويعيثون في الجزيرة فساداً ، ويأخذون طوائف الحجيج عاماً بعد عام ، فيقتلون مسرفين في القتل ، ثم يعودون بالأسرى إلى هَجَرَ^(٣) . وما جاء القرن الرابع حتى كان زعيمهم « أبو طاهر الجتاني

(١) الصمان : مرتفع صخري متاخم للدهناء . قبحانه عذبة المياه ، ورياضه معشبة . انظر معجم ياقوت ٣٨٣/٥ .

(٢) القرامطة : جماعة متردة ، عالت في الشرق الإسلامي فساداً في القرن الثالث الهجري ودونت الدولة العباسية .

(٣) هجر : قاعدة البحرين . ومقر عصابة القرامطة ، التي أرادت أن تجعل من (هجر) المركز الديني للإسلام ، بدلاً من مكة . راجع (تاريخ أبي القدا ٩٠/٢ ، ومعجم ياقوت ٤٤٦/٨) .

القرمطي^(١) يتسلق أسوار البصرة في نحو ألفين من رجاله ، ويغلب على الكوفة ويتسلم الأنبار ويفتك بعسكر للدولة عدته بضع عشرات من الألوف ! .
أجل ، كان حقاً علينا ونحن في الأحساء أن نلم بالقطيف ومنطقة البحرين ، فضينا ونحن نردد قول الشاعر :

وتركن عترة لا يقاتل بعدها أهل القطيف قتال خيل تنفع !
وقول الآخر :

نصحت لعبد القيس يوم «قطيفاً» فما خير نصيح قيل لم يُقبل ؟
فقد كان في أهل القطيف فوارسٌ حاة إذا ما الحرب ألفت بكلكل

سارت بنا السيارات إليها في الطريق الصحراوي المعبد من ميناء الدمام ونحن نربو في صمت إلى الصحراء الممتدة ، وقد أذابت شمسُ الأصيل فيها أشعتها الذهبية الغاربة ، وألفتُ عليها غلالة رقيقة متموجة . ولاحظتُ لنا « القطيف » من بعيد ، واحةً ناضرة على حافة الصحراء ، وجنة خضراء على طرف القفر المجدب ، ومراحاً خصباً عامراً شمالي الربع الخالي . وقد تعلقت بها أبصارنا ، حين بدأت السيارات تتعثر في دروب ضيقة ، تحف بها البساتين عن يمين وشمال ، وتجرى فيها الغدران فياضةً بمياه العيون والآبار . وتهادى إلينا نسيم المساء رخياً عليلاً معطراً بأريج الأزهار وشذا الثمار ورائحة العشب ، ويزغت أضواء الشفق الوردى فتوجت هامات النخل الباسقات ، ثم نفذت من بين السعف واستلقت في وهنٍ وتراخٍ على صفحة الغدير المتألق . وفوق العشب الندى ، غير مكتونة لصراخ أبواق السيارات ، ولا عابئة بنباح الكلاب في آثار القطعان .

وكذلك استغرقنا نحن في خمول هنئ . لم نكد نفيق منه إلا على هتاف أهل « القطيف » وقد خرجوا بمشاعلهم يستقبلون ضيوفهم أبناء النيل .
وأي الكرام أن يكفوا منا بحفلة الاستقبال في دار « السيد حمود : أمير القطيف » أو جولة عابرة في المنطقة ، بل دعونا إلى مجلس حافل أعيد لنا في بستان الوجيه « السيد عبد الله إخوان » أحد الأدباء الأعيان .

وكانت أمسية لا تنسى !

(١) أبو طاهر القرمطي : سليلان بن الحسن أبي سعيد ، زعيم القرامطة ، مات بالجلدي في هجر سنة ٣٣٢ هـ .
راجع (تاريخ أبي الفدا ٩٠/٢) .

لم يبق في القطيف من لم يسع إلى مجلسنا هناك ليلقى إلينا كلمة تحية وعتاب :
أما التحية فلمصر العزيزة الغالية ، قبله أنظار الشرق العربي ، ومهوى غفول أبنائه .
وكعبة الرواد والقاصدين من طلبة العلم وراغبي الثقافة .
وأما العتاب فلأدباء مصر الذين نسوا أن في شرق جزيرة العرب واحدة اسمها القطيف .
شاركته في صنع تاريخنا الإسلامي وتركت في تراثنا الأدبي أثرها الباقي الذي لا يزول .
إن « دارين »^(١) مازال هناك ، ترجع صدى أغاني « النابغة »^(٢) الجعدي
و « الفرزدق »^(٣) وغيرهما من الشعراء الذين لم يجدوا ما يشبهون به عرف الحبيبة أذكى من
مسك دارين . وإن بساتين « هجر » باقية حتى الساعة ، شجرة غناء ، تبتسم للضاربين في
الصحراء ، وتقدم الظل والتمر والماء ، كما كانت في قديم الزمان يوم ضرب العرب بها
المثل :

« كحامل التمر إلى هجر »

وهناك ، مازال آثار من الكعبة تروى قصة ذلك الحلم الأحمر الذي راود « أبا طاهر
القرمطي » وزين له أن يعمل من « هجر » وارثة لمكة ، فوافى البلد الحرام إبان موسم الحج
من سنة ٣١٧ هـ . ودخله في تسعة من شيعته ، فقتل أمير الكعبة ، وفكك بألوف من
الحجيج في المسجد وفي فجاج مكة ، وقلع باب الكعبة . وانتزع الحجر الأسود ثم اعتلى
سطح البيت وهو يصيح :

أنا بالله وبالله أنا يخلق الخلق وأنهم أنا !

قبل إنه قتل بفجاج مكة وظهرها ، زهاء ثلاثين ألف نفس . غير من سبي من نساء
وغلان . وأقام بمكة ستة أيام ثم عاد في موكبه الحافل يحمل الحجر الأسود إلى « هجر » فبقى
بها هذا الأثر المقدس نيفاً وعشرين سنة . حتى أعاده القرامطة إلى مكة عام ٣٣٩ هـ وهم
يقولون :

« ردّدناه بأمر من أخذناه بأمره ! »

~

(١) دارين : فريضة بالبحرين ، يجلب إليها الملك من الهند . وقد تغنى الشعراء بمسكها . راجع (معجم ياقوت
٥٣٧/٢ ومعجم ما استعجم للبكري ٣١٥/١) .
(٢) النابغة الجعدي : أبو ليلى بن عبد الله - شاعر جاهلي مقدم . أدرك الرسول عليه الصلاة والسلام وأنشده
شعراً . راجع (الإصابة) وطبقات الشعراء لابن سلام والأغني ١/٥ ط دار الكتب .
(٣) الفرزدق : همام بن غالب بن صعصعة . أحد أمراء الشعر الثلاثة في العصر الأموي ، وأبرعهم في الفخر .
انظر (الأغني ٣٢٤/٩ ط دار الكتب) .

أما تستحق بلاد البحرين بعد هذا لفظة من أدباء مصر ، ودارسى التاريخ الإسلامى والأدب العربى ؟

إنهم ليحجون إلى الحجاز ألوفاً ذات عدد كل عام ، وإن منهم من يتدب للعمل أو التدريس فى البحرين واليمن والكويت ، فهلا ألم بالقطيف من كل أولئك زائر ؟

• • •

وهى ، على الهجر الأليم ، لا تكف عن ذكر مصر ، وتنبع نهضتها العلمية والأدبية ، إنها فى معزها النافى المهجور على ساحل الخليج ، تستورد البضاعة الأدبية من ضفاف النيل ، وتعرف عن سير الفن والحياة بها ، وأعلام الأدب والفكر فيها ، ما قد يحمله المصريون أنفسهم ، لا أكاد أستثنى منهم سوى قلة من خاصة المتعلمين .

كم تأملت وأنا أصغى إلى حديث أدباء القطيف عن مدارسنا الفكرية ومعاركتنا النقدية ومذاهبن الفنية ؟ ! كم خجلت وأنا أرى فى أيديهم كتبنا ومجلاتنا ، نحن الذين لا نشعربهم أو تلقى إليهم بالا ؟ كم تأثرت وأنا أسمع الشاعر « عبد الرسول الجشى » يعرفنا ببلده الذى هو قطعة من وطننا العربى :

هذى بلادى وهى ماضى عامر	جداً ، وآتٍ - بالمشيئة - أعمُرُ
ألقى عصاه على فسيح ضفافها	وعلى الجزائر ، عالمٌ متحضرٌ
وأذلت التيارَ تحتَ شراعها	فلها عليه تحكُّمٌ وتأمرُ
وترى السفائن بالتوايل والحلى	والعطرِ من بلدٍ لآخر تُحمَلُ
شهدتْ موانئ الهند خفقَ قلوبها	فكانها فوقَ المياه الأنسرُ
ولها على وادى الفرات ودجلة	فضلُ المعلم وهو فضلُ يؤرُ

• • •

وأنت « ربيعة » وهى غرةٌ يَربُ	وأذنبها يومَ الكفاح وأصبرُ
وأعزها جاراً وأكثرها قرى	إذ يحلُ البلد الحصبُ ويُفقرُ
فراحتْ بها الوطنَ الحصية أرضه	للماء فيه تدفقٌ وتقبرُ
والنخل وارقة الظلال كأنها	جيش كثيف بالخليج مُسكرُ
تهدى لها الصحراء فى السحر الصبا	فصر كالسلم اللذيد وتخطر
والبحرُ يُهديها اللآلئ زينة	وتجارةٌ فيها الغنى يتوفرُ
وكصفحة المرأة جوٌ مُشرقُ	وكلوحة الفنان ريفٌ مزهرُ

ورأت بها لغة العروبة بيئة شعرة توحى ، وجوا يسحر
 فإذا الضفاف نشأئذ مسحورة وكأنما في كل حلق يزهر
 الملهمون المبدعون تسابقوا فيها بملرجة الخلود وشعروا
 شعراء « عبد القيس » تهزج بالهوى فيجيبها من « بكر » رهط أشعر
 فيها جنى « ابن العبد » ^(١) حلو شبابه راح وريحان ، ووجه أقر
 وخيال « خولة » ^(٢) يستثير غرامه فيظل في أطلالها يتحسر
 والجعفر الخطي فن خالد وروائع غنى بين السر

على مثل هذا كان يدور السمر في أمسترا بستان الأخ « السيد عبد الله إخوان » في القطيف . والآن وقد رجعت إلى مصر ، أرى حقاً على أن أنقل إلى قومي بعض أصداء ذلك المجلس الأدبي ، ليعلموا أن على ساحل الخليج في أقصى الشرق من جزيرة العرب ، علماء مجتهدين وشعراء ملهمين ، يتطلعون إلى مصر ويمتحنون باسمها ، ويباركون ثمار نهضتنا في العلم والفن ، « ويعتزون - كما قال الأخ السيد حسن بن علي أبو السعود - بما بيننا من روابط الدم واللغة والعقيدة ، ويكنون لأبناء الكنانة كل تقدير ومودة ، ويرون في الثقافة المصرية المورد العذب الثمر » .

وبالها من روابط عزيزة تجاهلناها نحن فلم نؤد ما لها علينا من حق ، وتشبث بها إخواننا هناك ، فأكادوا يروننا حتى هتف مضيقنا الكريم : « ليت هذه الزيارة التي طالما رتونا إليها ، تكون فاتحة تعارف وهمزة وصل بيننا وبين مصر الشقيقة . وما أمس حاجتنا إلى هذه الأخوة وذاك التعارف ، حتى نصبح ، نحن بنى الضاد ، كالبنيان الواحد يشد بعضه بعضاً ، وكالجسم الواحد إذا اشتكى منه عضو تألم له سائر الأعضاء » .

وقال الأديب « محمد سعيد الشيخ الحنيزي » :

إن بيننا وبين الصفوة الأمانة من أدباء مصر ومفكرها ، تياراً متصلاً في الفكر والروح ، مها تنأ بنا الدبار ، وتفصلنا بيداء وبخار :

(١) ابن العبد : طرفة ، الشاعر الجاهل للشهر .

(٢) خولة : حبيبة طرفة ، وفيها يقول ، في منهل معلقته :

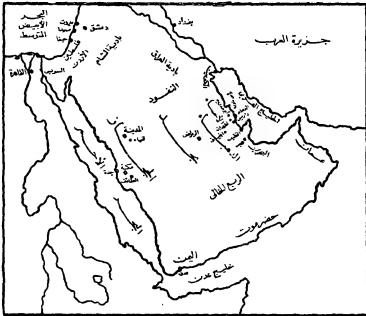
لحولة أطلات بريقة شهيد تلوح ككافي الوشم في ظاهر اليد
 وتوقفاً بها صحى على مطيهم يقولون لا تهلك أنسى ونجلد

إن القטיפ ومصر شعبٌ واحد
ففي نرى هذى الصفوف توحدت
وقال الشاعر محمد سعيد الجثنى :

هذى القטיפ شيوخها وشبابها
فلتُخبروا مصرَ العزيزة أننا
هذى ربوعُ العربِ مهدهُ واحد
وشعوبها أُمَّمٌ موحدة الطوى
ليكم أيها الإخوان الكرام ! هانذى أبلغ الرسالة وأسجل أصداء ما سمعت منكم
هناك . فهل ترى يبلغ صوق مسمع الأدباء والدارسين من بنى وطني ؟ !
أرجو ، وآمل . .
وتحية طيبة ، يحملها هذا الكتاب إليكم وإلى أهل الجزيرة جميعاً . .

من بنت الشاطئ

مصر الجديدة : مايو ١٩٥١



(٢)

لقاء مع التاريخ

١٣٩٢ هـ : ١٩٧٢ م

● ليك اللهم ليك

● في دار الهجرة

● عودٌ على بدء

● من وحي الملتقى

- من ذُرَا عرفات إلى سفح المكبر

- أغنية للعيد

- رسالة العيد

لَبَّيْكَ اللَّهُمَّ لَبَّيْكَ

على غير موعد كان هذا اللقاء مع التاريخ .
كنتُ إلى شهر ذى القعدة من عامنا الحالى - ١٣٩٢ هـ - فى المغرب الأقصى مشغولة بدراساتى القرآنية فى جامعة القرويين ، أرى فيها الجهاد والعبادة .
وقومنا هناك مشغولون بمراسم الوداع لحمة عشر ألفاً من الحجاج المغاربة ، فى حفلات سيطرت على ديار المغرب ، وملأت الأفق بموشحات وأناشيد أرهفت شوق القاعدين ، وأنا منهم .
وأرغفنى الحنين إلى الحرمين ، من حيث بدا أن لا مكان لى على الطائرات المحجوزة كلها ، إلى آخر يوم يدرك موسم الحج .
وقد دنا الموعد ، والأمل يبدو بعيداً .
ثم أذن الله تعالى فيها لى الأسباب من حيث لا أتوقع . وفى أيام معدودات كانت إجراءات سفرى قد تمت بفضل همة السفير السعودى فى الرباط « السيد فخرى شيخ الأرض » وصحبتى مروونه حتى ركبت الطائرة من الدار البيضاء ، مع آخر فوج من الحجاج المغاربة .
ومعى ما تيسر من الدراهم ، وزادُ قليل من الخبز القديد والإدام الجاف ، قدّرت أنه يكفىنى مع التقشف ، فى رحلة نسك وعبادة .

بلغنا مطار جدة فى الصبح الباكر من يوم الجمعة ، الرابع من ذى الحجة ، لأجد نفسى فى ضيافة سمو الأمير الشاعر « عبد الله الفيصل » من حيث لم أحسب أنه ما يزال يذكرنى ، وآخر عهدنا باللقاء مجلس سمر فى أمسية قاهرية بعيدة ، طربنا فيها على نغم قصيدته الشجية (سمراء) .
وأثار لقائنا الجديد شجون ذكريات لمجالس حافلة جمعتنا قبل عشرين سنة فى جدة وفى مصر ، كنا فيها نستقبل الحياة والدنيا بنجى والبال خلى* .
وفى كئنا فى المساء بقصر جدة ، نسترجع الذكريات وتتناشد الأشعار وتناكس أشجاننا

وهوم أمتنا وتندبر عيرةً أيا منا وليالينا ، استأذن زائر من رجال المراسم الملكية ، تحدث إلى سمو الأمير « عبد الله » فالتفت إلى ليلى ليلغنى متلطفاً ، أننى انتقلت من ضيافته إلى ضيافة جلالة الملك الفيصل ، حفظه الله .

وخطر على بالى وأنا مأخوذة بهذه الرعاية الكريمة المضاعفة ، ما جثت به معى من زاد الحيز القديد والإدام الجاف ، حملته من أقصى المغرب إلى جدة ، عبر قارات ثلاث . وبقى على أن أتدير حيلة للتصرف فى توزيعه بوسيلة أو بأخرى . . .

وشهدتُ الموسم مع مليون وخمسين ألف حاج ، وسيعتهم الأرض المباركة حيث يقضون مناسك حجهم معاً ، ويتحركون فى وقت واحد من المطاف إلى مقام إبراهيم فالمسعى ، ويبيتون جميعاً ليلة الوقفة فى منى ، ويكرون معاً فى الصبح إلى عرفة ، ومنها يفيضون بعد غروب الشمس إلى مزدلفة ، ومعاً يعودون إلى منى فتؤويهم أيام التشريق على رحب وسعة !

وإن أكبر عواصم العالم لتضيق بيضعة ألوف من السائحين ، إن طرهوا عليها فى وقت واحد . . . ويُعيها أن تدبر لهم المنزل والطعام ووسائل الانتقال . .

• • •

فى كل خطوة وكل موقف ومشهد ، وجدته مع التاريخ فى أم القرى والبيت العتيق : مدنية العصر قد غزت الوادى الأجرد غير ذى الزرع ، وأسراب الطائرات والسيارات قد حلت محلّ النوق والجمال ،

والكهرياء أبطلت وقود الحطب ، والرخام يرصف ساحة البيت العتيق وطريق للمسعى ، مكان الحصى والرمال . والمباني العصرية تقوم حيث كانت الدور البدوية البسيطة . ولا شىء من هذا كله ، يَمَس روح المكان . .

تغير الشكل والمظهر ، وبقى للمكان جوهر شخصيته التاريخية ، يتألق بنور قداسته ويتوهج بسنا أصالته وعراقة .

والكعبة تستبدل بكسوتها كل عام أخرى جديدة ، وتبقى شخصيتها بمنأى عن طوارئ التغيير : مثابة الحج ومهوى الأئمة ، وبيت الله الحرام ، أقدم بيت عُبد فيه سبحانه وتعالى على الأرض ، وأحب أرض الله إلى الله ورسوله وأمه .

وكذلك تتغير أشخاص الحجاج موسماً بعد موسم ، وتختلف شخصياتهم من جيل إلى جيل .

والسَّمْتُ واحد ، على تفاوت الأجيال ،

والشعائر والمناسك واحدة ، على تباعد السنين والقرون . .

ويتصل الحاضر بالماضي عبر حقب ودهور ، في هذه البقاع المباركة التي تحتفظ بمجهر شخصيتها منذ عرفها التاريخ مثابة للحج وأمنّا ، فلنسا نراها اليوم إلا كما رآها آباء لنا وأجداد على مر الزمان :

لبوا كما لبينا ، وطافوا مثلنا طفتنا ، وسعوا كما سعينا ، ووقفوا بالشعر الحرام وعلى عرفات كما وقفنا ، ونهروا إلى المزدلفة كما نفرنا ، ونحروا في مِنى كما نحرنّا ، وباتوا بها ليلة الوقفة وليالى التشريق حيث بتنا .

والأماكن غيرها تتغير وتتبدل ، فيطمس جديدها معالم القديم ، ويَذْكُ عمرانها المحدث أطلال العتيق ، فلو أن أحداً من أهلها غاب عنها بضعة عشرات من سنين ، ثم عاد إليها ، لأنكرها وأنكرته ، وأعوزَه فيها ترجان ودليل . .

كم عرفت الدنيا يوتناً غير هذا البيت العتيق !

كم شيدت من قبله ومن بعده ، قصور باذخة ومعابد شاحنة وصروح مرمدة شاهقة ! وهذا البيت العتيق حيث هو منذ كان ، تتضامل دونه أبهى البيوت وأفخم القصور وأعلى الصروح !

وراء المعروف من تاريخه الدينى ، دهور وأحقاب موغلة في أعماق ما قبل هذا التاريخ ، شهد الزمن فيها موضع هذا البيت ملاذاً للضاربين في مفاوز الفلاة ، يلتمسون لديه الأمن والراحة ، ويؤدون في حماه شعائر عبادتهم التى ارتدت في ظروف مجهولة إلى وثنية ضالة ، هجرت البيت العتيق فلم يبق منه سوى أطلال جذبت إليها « إبراهيم » فجاءها من أرض كنعان ، وترك عندها ولده إسماعيل مع أمه هاجر .

لم يجد لها ملاذاً سوى جوار البيت المحرم العتيق عندما ضاقت بهما امرأته السيدة سارة وأصرّت على ألا يضمّهما وجاريتهما الولود سقف بيت واحد .

في جوار البيت العتيق أنزلها ، وانصرف عائداً إلى أرض كنعان وهو يدعو ربه :
« ربنا إني أسكنت من ذريتي بواد غير ذى زرع عند بيتك المحرم ربنا ليقيموا الصلاة ،

فاجعل أفئدة من الناس تهوى إليهم وارزقهم من الثمرات لعلهم يشكرون .
 واستجاب الله لدعائه ، ونظر إلى الأم المنبوذة قد أجهدها السعي بين الصفا والمروة بحثاً
 عن قطرة ماء أو أثر لحياة في الوادي القفر الماحل .
 حوّم طائر على المكان ونبش في الأرض فانبجس الماء من نبع زمزم . ونجا إسماعيل ،
 وانبثت الحياة في القفر : مرّت قافلة من جرهم قرب المكان ، فلمحت الطير محوّمًا عليه ،
 وانتهجت نحوه لعلها أن الطير لا يعوم على غير ماء . وألقت رحالها حول النبع المبارك .
 وبورك مسمى الأم بين الصفا والمروة ، فأخذ موضعه بين شعائر الله في الحج .
 فذلك هو مسعانا مهرولين بين الصفا والمروة ، مثلما سعت هاجر التي دخلت التاريخ
 الديني بهجوم أمومتها ، وأعطت « عيد الأم » عندنا قيمته ومعناه .
 وعاد إبراهيم إلى ولده وقد بلغ معه مبلغ السعي ، فأفضى إليه برؤياه : أن يذبحه قرباناً
 لربّ هذا البيت العتيق .

وامتلل الفتى لأبيه في أمر ربه صابراً لم يتردد . . .
 ثم تجلّت رحمة الله بعد ذلك البلاء المبين فكانت آية الفداء :
 « فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ قَالَ يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَى فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانْظُرْ مَاذَا تَرَى ، قَالَ يَا
 أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ ، فَلَمَّا أَسْلَمَا وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ . وَنَادَيْنَاهُ أَنْ
 يَا إِبْرَاهِيمُ . قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيَا إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ . إِنَّ هَذَا لَهُ الْبَلَاءُ الْمُبِينُ » . وفديناه
 بذبح عظيم » .

وخلّد المشهد شعيرة من شعائر الدين ، فكلما هلّ عيد الأضحى نحرنا الضحية في ميّ ،
 أو حينئذ نكون ؛ ذكرى وعبرة ، وإحياء لمشهد البذل والفداء طاعة وتقوى .
 والعبرة في الشعائر بالتقوى :

« لَنْ يَنَالَ اللَّهُ لَوْحُومًا وَلَا دُمَآؤُهَا وَلَكِنْ يَنَالُهُ التَّقْوَى مِنْكُمْ » .
 « ذَلِكَ وَمَنْ يُعْظِمِ شَعَائِرَ اللَّهِ فَإِنَّهَا مِنْ تَقْوَى الْقُلُوبِ » .
 وبلغ الذبيح المفتدى أشدّه ، فأصهر إلى جرهم وتعربّ فيها لتعمر مكة بذريته العرب
 العدنانية المتعربة .

وتلقى العهد مع أبيه إبراهيم :
 « وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْنًا وَاتَّخِذُوا مِن مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى ، وَعَهِدْنَا إِلَى
 إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ أَنَّ طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْعَاكِفِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ » .

واستجابة لأمر الله تعالى واتجها إليه بالضراعة والابتهال والدعاء :

« وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ . رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُسْلِمَةً لَكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنْتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ . رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ ، إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ » .

فتلك هي صلاتنا في مقام إبراهيم بعد الطواف بالكعبة في حج أو عمرة .
ومن ذلك الماضي الموعلى في القِدَم ، كان الأذان في الناس بالحج إلى بيت الله المحرم المطهر :

« وَإِذْ يَبُوءَانَا لإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ أَنْ لَا تُشْرِكْ فِي شَيْءٍ وَطَهَّرَ بَيْنِي لِلطَّائِفِينَ وَالْقَائِمِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ . وَأَذَّنْ فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَى كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِنْ كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ » .

وتأصل حرمة أم القرى لموضع هذا البيت منها ، فما عرف التاريخ سواها عاصمة دينية للعرب في الجاهلية .

وقد غيرت عليها عصور بعد إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام . ارتد فيها العرب إلى الوثنية ، دون أن تفقد مكة حرمتها فيهم ، أو ينقطع حجهم إلى بيتها العتيق .
وغلّب عليهم اليقين أن مكة (لا تُفَرُّ فيها ظلماً ولا بغياً . ولا يبغي فيها أحد على أحد إلا أخرجته ، ولا يُريدُها ملكٌ يستحلَّ حرمتها إلا هلك مكانه) .

والمرويات عن تاريخها مع الجبابرة المفسدين ، شاهدة على رسوخ ذلك اليقين ^(١) :
بغى فيها جرهم . فأخرجهم بنو إسماعيل منها أذلة صاغرين . يبكيهم شاعرهم راثياً :
كَأَن لَمْ يَكُنْ بَيْنَ الْحَجَّوْنَ إِلَى الصَّفَا أَنَيْسٌ وَلَمْ يَسْمَرْ بِمَكَّةَ سَائِرُ
وهم « تبع الجمري » بالبيت العتيق يريد إغرابه ، فيروى أنه رمى بداء تمخض منه رأسه قيحاً وصديداً . وتيسر أطرافه وأعياء الطبّ علاجه . حتى نصّح بأن يرجع عما أراد بالبيت العتيق .

وحملوه فطاف به معظماً ، وكسا الكعبة وأطعم الناس ، فنجأ .

(١) أقرأها بتفصيل في الجزء الأول من : السيرة النبوية لابن هشام ، وطبقات ابن سعد ومعها : تاريخ الطبري ، وتاريخ مكة للأزرق .

وهلك من بعده صاحبُ القيل « أبرهة الحبشي » : كان قد بنى كنيسة فخمة في صنعاء ليصرف إليها حجَّ العرب . وجلب إليها (الرخام المجزع والحجارة النقوشة بالذهب ، من بقايا قصر بلقيس ملكة سبأ . ونصب فيها صُلبانا من الذهب والفضة ومناير من العاج والآبنس . ثم كعب إلى مولاه نجاشي الحبشة : إني قد بنيت لك أيها الملك كنيسة لم يَبْنِ مثلها للملك كان قبلك ، ولست منتهاً حتى أصرف إليها حجَّ العرب) .

لكن أبرهة هلك دون غايته .

منع الله بيته الحرام ، وسلط على أصحاب القيل وباء مهلكاً ، رمهم بمراثيمه طير أبابيل ، فجعلتهم كعصف مأكول .

ولم يكن لمكة عهد قبل ذلك يوباء الجدرى ، فيها نقل « ابن هشام » في (السيرة النبوية) .

وبقي البيت العتيق في أم القرى مثابة للناس وأماناً ، ومثابة الحج لقبائل العرب جميعاً .

وبلغ من رسوخ اليقين بحرمته ، ما تناقلته الأجيال إلى قبيل عصر المبعث في تفسير لوثي

أساف ونائلة ، تذكره السيدة عائشة أم المؤمنين فتقول فيها نقل ابن هشام :

« مازلنا نسمع أن أساف ونائلة رجلا وامرأة أحلثا عند الكعبة ، فسخطها الله حجرين

لاعتدائهما على حرمة الكعبة » .

وفي ليل الجاهلية ، بقيت ذكرى مناسك الحج على تقادم الزمن من عهد إبراهيم

وإسماعيل ، وإن مسختها الوثنية العمياء ، طقوساً صماء .

ويقدم التاريخ تفسيراً دينياً لهذه الوثنية ، يرتبط بقداسة البيت العتيق عند العرب

ومزله في عقيدتهم وقلوبهم ، ففيها نقل « ابن هشام » بالسيرة النبوية :

« أول ما كانت عبادة الحجارة في بني إسماعيل ، أن كان لا يظعن من مكة ظاعن

منهم ، حين ضاقت عليهم وتفسحوا في البلاد ، إلا حَمَلَ معه حجراً من حجارة البيت

تعظيماً للحرم . فحينما نزلوا وضعوه فطافوا به كطوافهم بالكعبة » .

ثم مع الزمن ، تاهت الدلالة الرمزية ، وبقيت الحجارة أصناماً يعبدون فيها ربَّ هذا

البيت لتقربهم إليه زلنى : « أَلَا اللَّهُ الَّذينِ الْخَالِصُ وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ مَا نَعْبُدُهُمْ

إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى » .

• • •

وكان لمكة في الجاهلية الوثنية ، أشهر أربعة حرم ، لا يحلُّ فيها قتال إلا أن ينسأها لهم

أحد النساء ، فيؤجل حرمة الشهر منها إلى آخر من الأشهر غير الحرم .

النسب. كان وظيفة من الوظائف الدينية العريقة التي تعتر بها القبائل ، فيقول « عمير بن قيس » يفخر بالنسأة من قومه بنى مالك بن كنانة :
 ألسنا الناسئين على مَعْدُ شهورَ الحِلِّ نجعلها حراما ؟
 كما افتخر « أوس بن تميم السعدي » بما كان قومه يتولون من إجازة الناس بالحج من عرفة :

لا يبرحُ الناس ما حَجُّوا مُعَرِّفَهُمْ حَتَّى يَقَالَ : أُجِيزُوا آلَ صَفْوَانَا
 جَدُّ بَنَاهُ لَنَا قَدِّمًا أَوَّالُنَا وَأَوَّرُوهُ طَوَالَ الدَّهْرِ أَخْرَانَا
 وفي قريش ، كان شرف وظائف سقاية الحجيج ورفادتهم في الموسم ، وراثة من جدهم « قصي بن كعب بن لؤى » المضرى العدناني .

ويذكرون من خبر السقاية ، أنها لما آلت إلى « عبد المطلب بن هاشم » - جد المصطفى عليه الصلاة والسلام - شقَّ عليه ما يلقي الحجيج من شح الماء . فذكر بئر زمزم التي أنقذت جده إسماعيل وجذبت إلى مكة قوافل الرعاة . وكان الناس إلى زمن عبد المطلب ، يتناقلون خبر جرهم لما طمرت بئر زمزم ، عند خروجها من مكة . فتعلق أمل عبد المطلب بالعثور على النبع المبارك المطمور . ومع طول التذكير صار هذا الأمل مشغله ليله ونهاره . حتى دثته رؤيا ملهمة على موضع البئر ، فغدا إليه بمعوله ، ومعه ابنته الحارث ، ليس له يومئذ ولد غيره . فلما همَّ بالحفر تصدت له قريش تتحداه أن يحفر هناك . وقد استضعفته أن لم يكن له غير ولد واحد . لكنه لم يبال غضب قريش ورفضها ، وتابع الحفر حتى بدت له الحجارة التي طُوِّيت زمزم تحتها . وعاد الماء فتدفق من النبع المبارك ، يسقى الحجيج . .

يومها ، نذر عبد المطلب لن ولده له عشرة أبناء وبلغوا معه بحيث يمنعون ، لينحرن أحدهم عند الكعبة . وتوافق بنوه عشرة ، فتلث عبد المطلب حتى بلغ أصغرهم « عبد الله » رشده ، ثم دعا بنيهِ إلى الوفاء لله بنذره ، فلبوا طائعين ، وما يدرون أيهم الذبيح حين خرج بهم أبوهم إلى الكعبة وقد حمل كل منهم قدحاً باسمه . وضرب صاحب القداح عليها ، فخرج على قدح عبد الله ، وقد كان أبوه يتمنى في نفسه ، أن لو أخطأه السهم . . .

وتكررت قصة الفداء : همَّ الشيخ بذبح ولده ، فما إن مسَّت الشفرة منحره حتى قامت قائمة قريش ، وقد هالها أن يغدو عملُ عبد المطلب تقليداً يُتبع ويورث ، أوكما قالت يومها :

« والله لا تدبجه أبداً حتى تُعَذَّر فيه . لئن فعلت هذا لا يزال الرجل يأتي بابنه فيذبجه .
فما بقاء الناس على هذا ؟ » .

وأجمعوا أمرهم على أن يستشيروا فيه عرافة لهم بخير . قالت ، لما عرفت أن الدية فيهم
عشر من الإبل :

-- ارجعوا إلى بلدكم فاضربوا القداح على ولدكم هذا وعلى عشر من الإبل ، فإن
خرجت عليه فزيدوا عشراً ثم عشراً حتى تخرج القداح على الإبل . فانخروها عنه وقربوها ،
فقد رضى ربيكم .

وفعلوا ، فإزال القدح يخرج على عبد الله وهم يزيدون الإبل عشراً فعشراً ، حتى
بلغت مائة ، فخرجت القداح عليها . ولم يطمئن عبد المطلب حتى كرروا ضرب القداح
ثلاث مرات ، وهى تخرج على الإبل المائة . فنحرها وتركت لا يُصد عنها إنسان
ولا وحش .

ونجا عبد الله ، واسترجعت مكة ذكرى الذبيح المفتدى الأول : إسماعيل ، جد قريش
والعرب العدنانية .

ومن الكعبة خرج عبد المطلب بولده عبد الله إلى بيت سيد بنى زهرة : وهب بن
عبد مناف الزهرى ، فخطب ابنته « آمنة » عروساً لعبد الله ، « وهى يومئذ أفضل فتاة فى
قريش نسباً وموضعاً »

فى عام الفيل ، وُلِدَ اليتيم الهاشمى الذى مات أبوه عبد الله فى طريق عودته من رحلة
الشام ودُفن فى نرى يثرب ، ولم يقبل الموتُ فيه هذه المرة أى فداء :

وفى السادسة من عمره ، خرجت به أمه آمنة من مكة إلى يثرب ، لزيارة قبر أبيه
عبد الله هناك . وغالما الموت فى طريق الإياب ، فدفنوها بالأبواء ، وتابع محمد سيره إلى
مكة ، وحيداً محزوناً مضاعف اليتيم .

وفى صباه ، شهد حلف الفضول فى دار ابن جدعان بمكة ، وفيه تعاقدت أحياء
قريش على ألا تُقر فى مكة ظلماً ، ولا يُظلم فيها أحد إلا كانت على ظلمه حتى ترد مظلمته .
فى الخامسة والثلاثين من عمره ، كان حادث تجديد بنيان الكعبة الذى حسم فيه محمد
خصومة معقدة بين قبائل قريش ، أنذرت بحرب :

كانت الكعبة قد مستها شرارة من بحمرة إحدى النسوة ، فأحرقت ستائرُها وأوهتُ

بنيانها . ووقفت قريش أمام حرمة الأقدس مكتوفة الأيدي لا تدري ماذا تفعل ، تهباً من المساس ببقايا البيت العتيق . وشاع أن البحر رمى بسفينة جنت إلى ساحل جدة ، فأسرع إليها رجال من قريش ثم عادوا بأخشاب السفينة ، وبرجل من قبط مصر ، نجار بناء . وتم الاستعداد لتجديد بنيان الكعبة وقريش ما تزال تتهيب أن تمس بقاياها ، حتى قام « الوليد بن المغيرة المخزومي » فأخذ المعول وقال : « اللهم لم نزع ! اللهم إنا لا نريد إلا الخير » .

ثم أهوى بالمعول على البنيان المتصدع ، والقوم ينظرون إليه مشفقين عليه وعلى أنفسهم . فلما لم يصبه سوء ، تلبثوا ليلتهم مترددين يتريصون عاقبة ما كان . فلما أصبح « الوليد » غادياً على الحرم لم يمسه شر ، هدموا معه . وتنافست القبائل في جمع الحجارة للبناء ، حتى إذا تم ، اختصموا فيما بينهم أيهم يستأثر بشرف رفع الحجر الأسود إلى موضعه . وقد كان أقدم أثر باق من البيت العتيق .

ومكثوا على الخلاف بضعة ليال ، ونذر الحرب ترداد . حتى تراضوا على أن يحكموا بينهم أول من يدخل من باب البيت الحرام . وتعلقت أبصارهم بالباب في انتظار الحكم ، فكان أول من دخل : محمد بن عبد الله بن عبد المطلب .

هتفوا جميعاً : هذا الأمين . رضينا بحكمه . وحذوئه بالأمر . فطلب ثوباً ثم تناول الحجر فوضعه فيه . وقال للقوم من حوله : « لتأخذ كل قبيلة بناحية من الثوب » ، ثم أرفعه جميعاً .

فعلوا . حتى إذا بلغوا به مكانه ، وضعه « الأمين » بيده ، ودعّم بناءه . وانجابت الظلال عن أفق أم القرى .
هكذا على طول المدى ، كان لمكة حرمتها وللبيت العتيق مكانه وجلاله .

حتى بزغ الفجر الصادق من ليلة القدر المباركة وخرج المصطفى « محمد بن عبد الله » مبعوثاً بختام رسالات الدين . يتلو في الأمين كلمة الوحي الأولى : اقرأ . .

ونسخ نور الفجر ليل الجاهلية ، فتطهرت ساحة البيت العتيق من الأصنام ، وانطفأت نار المجوسية ، وترنحت صروح الجبابرة تريد أن تنفض .

ودخل الناس في دين الله أفواجا ، وأظل لواؤه شعوب الدنيا من أقصى المشرق إلى أقصى المغرب أمة واحدة : قبلتها هذا البيت العتيق .

• • •

وتمضي الأعوام والقرون .

وتتعاقب الأجيال والعصور ،

والتاريخ مشدود إلى حشود الحجيج في الموسم الدوري من السنة القمرية ،
يسعون إلى البيت العتيق محرمين متطهرين ، خاشعين قانتين . قد تجردوا من كل زينة
وجاه وزهو ، وطرحوا عنهم ما يتفاخر به الناس من أزياء وألقاب ورُتب ومناصب ،
وتخففوا من أنقال المادية التي تتد روح الإنسان ، وتختفي فيه هيامه الفطري إلى الحق والخير
والجمال .

وأمحت بينهم فروق الألوان والأجناس والعناصر ، وفوارق الطبقات والدرجات ،
واستوى الملوك والرعايا ،
واستوى الأمراء والدمماء ،
واستوى الأغنياء والفقراء ،
واستوى الرؤساء والأتباع ،
فليسوا جميعاً سوى عباد الله .

وتشهد الدنيا في هذا الحرم آية المساواة في عقيدة لا يتفاضل الناس فيها إلا بالتقوى :
أكرمهم عند الله أتقاهم .

يمحق بها الدين في ختام رسالته ، كل ما يثود إنسان العصر من مآسى التفرقة
العنصرية وجرائم الاضطهاد المذهبي ، ولعنة الوثنية المادية . .

• • •

بصوت واحد ، في حرم البيت العتيق غير بعيد من غار حراء ، يعلو هتاف ألف ألف
وخمسين ألف مسلم ، شهدوا هذا الموسم :

ليك اللهم لييك

لا شريك لك لييك

ويسترجع بنا التاريخ مشهد المسلمين الأولين وهم يدخلون هذا المسجد الحرام يوم

الفتح ، في السنة الثامنة للهجرة ، حافين بالمصطفى عليه الصلاة والسلام ، إذ يصلّى بهم في الحرم المطهر من رجس الأوثان ،

وتجواب الآفاق ، عبر الزمان والمكان ، بدعائه عليه الصلاة والسلام يوم الفتح :

« الله أكبر الله أكبر »

لا إله إلا الله وحده ،

نصر عبده ، وأعز جنده

وهزم الأحزاب وحده »

فهو من ذلك اليوم المشهود دعاء عيدنا ، في الفطر والأضحى ، يصدع جبروت الطاغوت ، ويمحق أعداء الإنسان الذين يريدون ليطفئوا في ضميره نور الإيمان « والله مُتمّ نوره ولوّ كره الكافرون » .

مِنّى :

١٢ من ذى الحجة ١٣٩٢ هـ

في دار الهجرة

وَالْأَتَّصِرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ
كَفَرُوا ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْهُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ
لصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا فَأَنْزَلَ اللَّهُ
سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ
كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَى ، وَكَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ
الْعُلْيَا ، وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ .

صدق الله العظيم

مع التاريخ كان مسعانا من أم القرى إلى دار الهجرة .
صلينا الظهر في المسجد الحرام ، وحملنا الطائفة في العصر من جدة ، فأدركنا صلاة المغرب مع الجماعة في الحرم النبوي . وبتنا ليلتنا في جوار الحبيب المصطفى ، يسعى بين أيدينا أهل الحرم مرحبين مكرمين .

هذه الرحلة المريحة التي لم تستغرق ما بين عصر ومغرب ، على متن طائفة ملكية فوق بساط ريح رُحَاء ، أرهفت وعينا لحديث التاريخ عن رحلة نبينا المصطفى عليه الصلاة والسلام ، من دار مبعثه في أم القرى ، إلى دار هجرته في يثرب .

أبصارنا تحديق في الطريق الصحراوي الوعر ، تلمس من علي موضع « غار ثور » بأسفل مكة ، حيث أوى المهاجر ﷺ مع صاحبه الصديق ، ربنا تهادا المطاردة الشرسة من طواغيت قريش .

خرجنا إلى الغار من نخوة في ظهر بيت الصديق ، بعد أن أشرف المصطفى على مهد مولده ودار مبعثه فاستوعبها بنظرة حزينة وقال يودعها :
« والله إنك لأحب أرض الله إلى الله ، وإنك لأحب أرض الله إلي . ولولا أن أهلك أخرجوني منك ، ما خرجت . »

وفي غار ثور كان مأواهما ثلاث ليال ، والمطاردون يَعدُونَ في أثرهما ، ويبلغون الغار فيهمون باقتحامه ، لولا أن صدَّهم عنه نسيج عنكبوت على فتحة ، وحامتان وحشيتان وقعتا عليه .

قال الصديق للمصطفى : لو أن أحدهم نظر إلى قدمه لرآنا .
فكان جوابه ، ﷺ : [لا تحزن إن الله معنا] .
وفي هداة المساء من الليلة الثالثة لمقامها في الغار ، سريا مع دليل ثقة أخذ بها طريق الجنوب من أسفل مكة ، وكان غير مطروق .

الطريق الوعر يترأى لنا من نوافذ الطائفة ، بكل مخاطر ومفاوزه والتاريخ معنا ، يتبع خطوات المهاجر حتى يثرب ، واصلا إليها من قباء .
وفي أهل المدينة ، آتسنا ملامح أجدادهم الأنصار من أوس وخزرج ، يوم احتشدوا هناك لاستقبال نبينهم المهاجر ، عليه الصلاة والسلام .

وفي أصواتهم إذ يرحبون بضيوف الحمى من حجاج الموسم ، رجعُ هتاف الأنصار يوم الوصول :

طلع البدر علينا من ثنيات الوداع
وجبَّ الشكرُ علينا ما دعا لله داع
أيها المبعوث فينا جئت بالأمر المطاع

° ° °

المسجد النبوي يأخذ القلوب والأبصار بجلاله وعظمته ، وسعة رحابه وفخامة مبناه . الأجيال من أمة محمد ، ﷺ ، قد أعقدت عليه من حبا ما لم يحظ بمثله مثوى بشر . وبذلت له من فنها ومالها ، في أريحية وسخاء . وجلبت له من ديار الإسلام ، في المشرق والمغرب ، نادر الرخام وثمين الخشب وبهيّ الثريات ، وفرشت رحابه بفخار البسط والسجاد ، نسجت أيدى مهرة الصنائع من الشعب الإيراني المسلم . وتيق روح المكان في أنقى أصالتها وعراقها ، كأن لم تمسه يدٌ بالتغيير منذ شهد التاريخ بناء هذا المسجد في الأيام الأولى بعد الهجرة .

دخل المصطفى المدينة من قباء يوم الجمعة ، وسط حشد من المهاجرين والأنصار ، فأدركته صلاتها في حى بنى عوف بن سالم ، فصلّى بالصحابة أول جمعة بالمدينة . ثم أرخى العنان لناقته القصواء وهى تشق الزحام لا يدري أحد أين يكون مقام المصطفى في دار هجرته ، وكل بيوتها مفتوحة له ترحب به .

وبدا الموقف صعباً : كلما مرَّ بجى من أحياء الأنصار بادر إليه الرجال يسألونه شرف النزول فيهم ، وهو يتخرج من إيثار حى على آخر فيردُّ معتذراً : « خلوا سبيلَ ناقى » . إلى أين ؟ إلى حيث تمضى به القصواء .

وقد خطت وثيداً تشق الزحام حتى برّكت به عند مربد هناك . فحطَّ المهاجر رحله وقام يصلى .

على ساحة هذا المربد ، بُنى المسجد النبوى : ثانى الحرمين ، ومزار المسلمين على مر الزمان . وتنافس المهاجرون والأنصار في بنائه بما تيسر من مواد : اللبن والجريد والليف ، وبعض الحجارة والخشب ، والمصطفى معهم ، يشارك ويوجه ويعين . حتى تم البناء ، لم يستغرق أكثر من أيام معدودات . ومن حول المسجد ، بُنيت تسع حجرات تفتح على ساحته ، لتكون دار النبی المهاجر .

وكان مبنى المسجد والحجرات بسيطاً متواضعاً ، بعضه من حجارة مرصوفة ، وبعضه من جريد يُمسكه الطين ، والسقف كله من جريد .
 وشُدَّتْ خشبات بالليف ، فكانت سريراً لمن اصطفاه الله خاتماً للنين عليه السلام .
 وغير بعيد من المدينة والحجاز ، كانت قصور الحكام والأمراء والأغنياء ، في الخيرة وغان واليمن ، وفي مصر والحبشة وفارس ، تعلو سامقة شائعة . ساطعة بأضواء البذخ والترف ، فتخطف أبصار الدنيا عن ذلك المبنى البسيط المتواضع الذي لم يلبث سنا نوره أن كسف ضوءه كل ما عرفت الدنيا من قصور لكسرى وقيصر وفرعون ، وإمبراطور ونجاشي وملك .
 وفي الأحياء اليهودية الناشئة في يثرب ، وفي مستعمراتهم بشمال الحجاز ، دورٌ مشيدة وحصون منيعة ، تطل على المبنى البسيط المتواضع لنبي الإسلام ، فيبدو لها فقيراً أشد الفقر . ويلتقط أهلها ما يتلو الأميون من آيات القرآن في الحث على الإنفاق في سبيل الله ، براً وتراحاً وتكافلاً . فتذيع القالة اليهودية الفاحشة : « إن الله فقيرٌ ونحن أغنياء » :
 وتمتضي الأعوام والقرون ، توسع من رحاب المسجد وتسخر في العناية به والبذل له ، وهو هو ، بروح عراقة وجوهر شخصيته .

• • •

ليلتنا الأولى بدار الضيافة في جوار الحرم النبوي ، كانت مع التاريخ إذ يروى حديث هذه المدينة التي فُتِحَتْ بالقرآن من قبل الهجرة ، ففتحت قلبها وبيوتها لهجرة الإسلام . وقد كانت إلى ماض قريب ، تبدو بعيدة عن مسرح الأحداث ، وإن لم تصرف سمعها عن الصراع الدائر في مكة بين الوثنية والإسلام ، وهو يدنو من ذروة تعقده مؤذناً بوشك تحول في متجّه الأحداث .

قبل الهجرة بستين ، أهلٌ موسم الحج وخرج المصطفى كدأبه في كل موسم ، يعرض الإسلام على وفود القبائل العربية ، وقومُه أشد ما كانوا عليه من خلافه ورفض دينه ، إلا قليلاً ممن آمن به .

وبدت الجولة في أولها ، مدعاةً إلى بأس وقنوط :
 سعى إلى « منى » حيث يجتمع الحاج ، فوقف على الحشود هناك داعياً ومبشراً ونذيراً ، فتصدى له عمه أبو لهب ، يكذّبه ويصد الناس عنه .

وانتظر ﷺ حتى انصرفت القبائل من منى إلى منازلها في مكة ، فألقى كندة فدعاهم إلى الإسلام فأبوا عليه .

وكذلك ردّه بنو كلب ، لم يقبلوا دعوته .
ثم أتى بنى حنيفة في منازلهم ، فلم يكن أحدٌ من العرب أقيحَ عليه ردّاً منهم .
وانتقل بدعوته إلى بنى عامر بن صعصعة ، فساوموه بالبيعة ، على أن يكون لهم الأمر من بعده !

ولما قال ، عليه الصلاة والسلام : « الأمر إلى الله يضعه حيث شاء » . ردّ المساومون :
« أفهدف نُحورنا للعرب دونك ، فإذا أظهرك الله كان الأمر لغيرنا ؟ لا حاجة لنا بأمرك » .
ومن حيث بدت الأبواب كلها موضدة هناك في وجه الإسلام ، ظهرت يثربُ على الأفق الشمالى البعيد ، تجذب إليها متجه الأحداث من دائرته المغفلة في أم القرى :
لُقِي المصطفى في (العقبة) نفرّاً من البثريين الخزرج ، دعاهم إلى الإسلام فأجابوه ، وقالوا :

« إنا قد تركنا قومنا ولا قوم بينهم من العداوة والشر ما بينهم ، فعسى أن يجمعهم الله بك . فسندم عليهم فدعاهم إلى أمرك ونعرض عليهم الذى أجبناك إليه من هذا الدين ، فإن يجمعهم الله عليه ، فلا رجلاً أعزُّ منك » .

ثم أخذوا طريقهم إلى الشمال عائدِينَ إلى بلادهم ، ومعهم صحابى جليل من صميم قريش . هو « مصعب بن عمير بن هاشم » موفداً من قِبَلِ المصطفى عليه الصلاة والسلام ، ليقرئهم القرآن ويفقههم في الدين .

ونزل مصعب على أنصارى من الخزرجيين أصحاب بيعة العقبة الأولى : « أسعد ابن زرارة » كبير بنى النجار ، أخوال أبى محمد ، عبد الله بن عبد المطلب .

فحدث أن خرج مصعب يوماً مع ابن زرارة ، إلى حىِّ بنى عبد الأشهل ، واجتمع إليهما رجال من الأنصار ، فسمع بمقدمهما « سعد بن معاذ ، وأسيد بن حضير » وهما يومئذ سيدا قومهما ، وكلاهما على دين آبائهما .

وخرج سعد بن معاذ من مواجهة أسعد بن زرارة ، وهو ابن خالته . فحرّض أسيد ابن حضير على أن يقوم فيردّه وصاحبه عن الحى .

التفت ابن حضير حريته ، ثم أقبل إليهما فقال متوعداً :
« ما جاء بكما إلينا تسفهان ضعافنا ؟ اعترلانا إن كانت لكما بأنفسكما حاجة » .

قال مصعب بن عمير : أو تجلس فسمع ، فإن رضيت أمراً قبلته ، وإن كرهته كفّ عنك ما تكره !

فرَّكَرَ «أسيد» حربه وجلس متكئاً عليها ، بسمع ما يقول مصعب عن الإسلام ، وما يتلو من القرآن .

ثم قال وقد زايله تقيُّضُهُ ونجهمه : ما أحسن هذا الكلام ؟
وأسلم . وانطلق عائداً إلى حيث ترك «سعد بن معاذ» في جمع من قومه ، فعرف سعد أنه جاء بغير الوجه الذي ذهب به .

وسأله عما فعل بالرجلين ، مصعب وأسعد ، فقال : كلمتهما فوالله ما رأيت بهما بأساً ، وقد نيتهما ، وإني لأخشى على ابن خالتك من بعض القوم .
فقام سعد مغضباً ، فما أبعد حتى رأى الرجلين يتجهان إليه في طمأنينة ، وعرف أن أسيد بن حضير ، إنما أراد له أن يسمع منها .
وتجاهل مصعباً ، وقال لأسعد ، ابن خالته :
— يا أبا أمامة ، أما والله لولا ما بيني وبينك من قرابة ، مارُمتَ هذا مني . أتخشانا في ديارنا بما نكره ؟

فترك أسعد الكلمة لمصعب الذي قال :
«أو تقعد فتسمع ، فإن رضيت أمراً ورجبت فيه قبلته ، وإن كرهته عزلنا عنك ما نكره ؟» .

قال ابن معاذ : أنصفت
وتكلم مصعب ، وقرأ القرآن .
وقبل أن يلفظ سعد بن معاذ بكلمة ، عرف القوم الإسلام في وجهه ، لإشراقه وتهلله .

وعاد إلى قومه فدعاهم إلى الإسلام فأجابوا جميعاً «فا أمسى في حى بنى عبد الأشهل رجل ولا امرأة ، إلا مسلماً ومسلمة» .

• • •

في الموسم التالي كانت بيعة العقبة الكبرى التي شهدها ثلاثة وسبعون رجلاً من الأوس والخزرج ، وامرأتان أم عمارة نسيية بنت كعب ، وأم منيع أسماء بنت عمرو بن عدي .
وعادوا إلى المدينة والإسلام معهم ، قد بدأ ببيعة العقبة الكبرى مرحلة جديدة مؤدنة بتحول حاسم في اتجاه الأحداث .

فبعدها بسنة واحدة ، كانت الهجرة التاريخية التي اختارها ثانی الخلفاء الراشدين « عمر ابن الخطاب » بداية للتاريخ الإسلامي .

تقديرًا لجلال الحدث الذي كان منطلق تحول حاسم وخطير في تاريخ الإسلام .

ونظوف بمعالم المدينة وضواحيها ، والتاريخ معنا دليل وشاهد :
هذه « قباء » منزل المهاجر عند وصوله من مكة ، وهذا مسجدها ، أول مسجد بني في الإسلام .

وهذه بدر ، تعيد ذكرى « يوم الفرقان » في السنة الثانية للهجرة حيث كانت الجولة الأولى من الصدام المسلح بين الإسلام وطاغوت الوثنية . وفيها تحدت موازين القوى ، لا بين هؤلاء وهؤلاء فحسب ، بل في كل صراع بين حق وباطل .
وذهبت بدر عيرة ومثلا :

القتال « يوم الفرقان » لم يكن بين قلة وكثرة فحسب ، ولكنه كان بين كثرة يعوزها سلاح الإيمان ليس فيها من يقاتل إلا وهو يفكر في حماية الجاه الموروث ويتقن الموت ، وقلة مؤمنة صابرة ليس فيها من يقاتل إلا جهاداً في سبيل الله وغضباً لما انتهك من حرمانه ، لا يبالي على أى جنب كان في الله مصرعه .

« قَدْ كَانَ لَكُمْ آيَةٌ فِي فِتْنِ الثَّقَانِ فَبِتُّ تَقَاتِلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَأُخْرَى كَافِرَةٌ يَرَوْنَهُمْ مِثْلِهِمْ رَأَى الْعَيْنِ ، وَاللَّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصَرِهِ مَنْ يَشَاءُ ، إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُولِي الْأَبْصَارِ » .

وهذا جبل أحد ، ما يزال حيث هو ، يروى حديث يومه المشهود ، ويعطى درسه وعبرته :

فيه خرجت قريش بجدها وحديدها وأحاييشها ومن والاهما من بنى كنانة وأهل تهامة ، ثاراً حلفتلاها في بدر ، ورحضاً لعار الهزيمة . . .

ونزل الجيش الزاحف من مكة على شفير الوادي مقابل المدينة ، وخرج له المصطفى بجنده المهاجرين والأنصار .

والتحم الجيشان . وحين بدا النصر للمؤمنين لاشك فيه . وولت قريش الأدبار عن معسكرها وتركت لواءها مطروحاً تحت مواطئ أقدام المتصرين ، تسرع رماة المسلمين ، فقالوا إلى معسكر قريش التي ولت الأدبار عنه ، فكشفوا ظهور المسلمين لحيل المشركين التي

لاحق لها الفرصة ، فكُتِرَت على المسلمين من حيث انكشفوا . .
وتغير وجه المعركة ، ليتعلم المسلمون الدرس . .

وهنا وهناك ، حيثما اتجهنا وأنى أقمنا ، كانت أطراف الكتاب الأولى من حزب الله .
تحفّ بنا وتجلو لبصيرتنا أروع مواقف البطولة ومشاهد الجهاد ، وتحبى في نفوسنا الأمل
الضائع ، وتذكركنا بأجداد ماضينا الأغر الذي شهدنا التاريخ فيه نملى عليه فيكتب ونوجهه
فيسير . .

وحان أوان الرحيل ، فودّعنا الحبيب في مثواه ، وكأننا نودعه يوم رحل عن دنيانا بعد
أن أبلغ رسالته ، وترك للمؤمنين من بعده أن ينشروا الدين والحق في الآفاق ، وأن يحملوا
لواء القرآن إلى الأقطار من مشرق ومغرب . .
وكانت آيته ، ﷺ بعد أن أتم رسالته ، أن يجوز عليه المرض والموت ، كما جازت
عليه أعراض البشرية وهمومها وعواطفها لكيلا يُفْتَن به المسلمون فينسوا أنه بشر رسول ،
كما قُتِرَ مَنْ قبلهم فاتخذوا نبيهم مع الله الها :
« وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَنُ ماتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ
وَمَنْ يَنْقَلِبْ عَلَى عَقْبَيْهِ فَلَنِ يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئاً وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ » .
ودفناه هناك ، حيث مات في حجرة زوجه أم المؤمنين السيدة عائشة بنت أبي بكر .
دفنوا محمد بن عبد الله الهاشمي القرشي .
وعاش الرسول ﷺ . خاتم النبيين الذي أرسله الله بالهدى ودين الحق ، في ليلة
القدر المباركة من شهر رمضان المبارك .
« سلامٌ هي حتى مطلع الفجر »

المدينة المنورة :

٢٠ من ذى الحجة ١٣٩٢ هـ

عود على بدء

«إن هذيو أمتكم أمة واحدة»

رحلتي هذه المرة . كانت للحج وزيارة الحبيب المصطفى ، وقد عقدت العزم على أن أفضيها في النسك والعبادة والتأمل ، لا أخلطها بشيء من شواغل الدنيا إلا ما لا حيلة لي فيه من هموم راسخة في أعماق النفس .

من ثم ، لم يكن لرحلتي أى برنامج خارج منطقة الحرمين . بل إني عزمت كذلك على الاعتذار عما عسى أن أتلقاه من دعوات خاصة ، أو اجتاع بالزملاء الأدباء والكُتاب ، راجية أن أتوه عنهم في ركب الحجاج المليون ، حيث لا يكاد أحدٌ يتميز من أحد ، ونحن في زى الإحرام ومواكب العبادة .

وفاتني أن الملتقى الإسلامى الكبير في الموسم ، يحقق تعارفنا من حيث ندرى ولا ندرى . فتفتح قلبي للقاء إخوة وأصدقاء من أقطار المشرق والمغرب ، بعد أن شط بنا النوى فتباعدت الديار ونأى المزار . وآخرين منهم جمعتنا على البعد زمالة الفكر والوجدان ، وإن لم يسبق لنا تعارف ولقاء .

ثم كانت آية الموسم الجامع ، أن يلقى بعضنا بعضاً مع اختلاف الألسنة والأجناس ، فتتعارف بالقلوب وإن لم تتعارف بالأسماء . وتتصافح وجوها وإن لم تتصافح الأيدي . وتشدّ بعضنا إلى بعض رابطة العقيدة ، نعمة الله على هذه الأمة ، تتجلى في ملتقاها عند القبلة الواحدة في مهد النبوة ومنزل الوحي .

ومن حيث رجوت أن أتقى مخالطة الناس . صرت أسعى إليهم تلقائياً مستجيبة إلى جاذبية الملتقى ، ومدركة ما غاب عني من حكمة الحج في تعارفنا وترسيخ شعورنا بوحدة الانتماء إلى أمة القرآن . .

ولما دنا الرحيل ، رحبت بدعوة لزيارة جامعة الملك عبد العزيز بجدة ، لأشهد المدي الذى وصل إليه جهاده في مقاومة التخلف والجهل والجمود ، وأرى ماذا آتى غرسه من طيب الثمرات .

وكنّت أتابع من بعيد ، ككاتب الشباب وهى تخرج من أعماق البادية فتفتحم الأسوار إلى آفاق العلم والمعرفة لكنى ما توقعت أن يشهد جيل ، خروج بنات الجزيرة من متاهة الجهل المفروضة عليهن باسم الدين ، إلى رحاب الجامعة . ولم أكن نسيت السدود الصماء التى رأيتها مضروبة على (حريم الجزيرة) تتحدى أى محاولة لإخراجهن إلى دور العلم . وقد سألت فى رحلتى الأولى : فيم هذا التعطيل لعقل المرأة المسلمة والوَأد لوعياها ، والعلم فى ديننا فريضة على كل مسلم ومسلمة ؟

فكان الرد : يخشى المشايخ أن يكون تعليمها ذريعة فساد خلقى .

ولما لم أفهم كيف يمكن أن يكون العلم مفسدة ، قيل لى فيما قيل ، إن البنت إذا تعلمت القراءة والكتابة ، لم يؤمن أن تتسلل إليها ومنها رسائل غرامية ، فتساق إلى الغواية والإغواء !

يومها لم أملك إلا أن أقول : لقد قرأنا وكتبنا ، وإن إحدانا لتلك من أمرها ، ما لا يملكه الحراس الأشداء . عفتها كانت وستظل أبداً ملك يديها ، لا تُفرض عليها من خارج . وهى فى الإسلام مكلفة كالرجل سواء بسواء ، تحمل وحدها أمانة إنسانيتها وتبعة كسبها ومسئولية عملها . وقد « ضرب الله مثلاً للذين كفروا امرأة نوح وامرأة لوط كانتا تحت عبدين من عبادنا صالحين فخانتاهما فلم يغنيا عنهما من الله شيئاً وقيل ادخلا النار مع الداخلين » . وضرب الله مثلاً للذين آمنوا امرأة فرعون إذ قالت رب ابن لى عندك بيتاً فى الجنة ونجنى من فرعون وعمله ونجنى من القوم الظالمين » . ومريم ابنة عمران التى أحصنت فرجها فنفخنا فيه من روحنا وصدقت بكلمات ربها وكتبه وكانت من القانتين » .

وكان أخشى ما أخشاه ، وأنا أرى بنات الجزيرة معطلات العقل موهودات الوعي ، أن يُظن بالإسلام أنه يريد للمرأة أن تُمسَخ آدميتها فتبهط إلى دونية الدواب العجماء ، وإنى لأعلم أنه الذى حرر عقولنا وضمائرنا ، وأن الله سبحانه ، مَنْ علينا بأن بعث فىنا نبينا عليه الصلاة والسلام يعلمنا الكتاب والحكمة . فإذا أفتى مشايخ نجد بأن تعليم البنت مفسدة ينبغى أن تُنقى سداً للذرائع ، والدنيا تعرف لهؤلاء المشايخ فقهم للإسلام وجهادهم فى مقاومة البدع وتنقية العقيدة من الشوائب ، فإن الناس يُعذرون إذا ظنوا بالإسلام الظنون ، وحسبوا أنه يفرض على المرأة أن تعيش دمية صماء بكاء عمياء والبصر والبصيرة .

ومعاذ الله أن نكون هكذا ، ونحن نتلو من آياته المحكمات .

« إن شرَّ الدواب عند الله الصم البكم الذين لا يعقلون » . .

وتركت الجزيرة ، من عشرين سنة ، وليس فيها مدرسة واحدة لتعليم البنات . .
 المدينة العصرية غزت بيوت نجد والأحساء ، فسمحت (للضوء ، والسينما والراديو)
 بدخول أجنحة الحرم .

ولم تسمح بدخول كتاب !

ومضى جيل واحد فحسب ، فُتحت فيه أبواب العلم الموصدة في وجوه البنات ،
 فاجتزأ المراحل إلى التعليم العالى . وهؤلاء هن في (جامعة الملك عبد العزيز بجدة) ،
 يوشكن أن يتمن مرحلة الليسانس ، ويحققن ما لم يجرؤ عهد العاهل الراحل على الخوض
 فيه ، فتركه أمانة لمهد ابنه الملك فيصل ، الذى جعل لتعليم البنات في المملكة ، رئاسة
 خاصة تعوض ما فات ، وتصل ما انقطع من ماضى هذه الأمة ، يوم كانت المرأة تشارك
 في صنع تاريخها مشاركة ذات بال ، وتفرض وجودها الفعال المؤثر ، على حياة قومها في
 الجاهلية والإسلام .

وفي أنحاء الجزيرة ، باديتها والخضر ، تقوم مدارس البنات منارات هدى ، وتستقبل
 في كل عام مع أفواج الطالبات ، فوجاً من معاهد المعلومات يحملن أمانة القيادة الصعبة على
 الدرب الخطر ما بين مناهة الجهل ورحاب المعرفة . فأذكرهن تلميذات مدرسة النبوة من
 الصحابيات والتابعيات ، وأجيالا بعدهن من المسلمات ، بلغن مرتبة المشيخة في علوم
 العربية والإسلام ، وإلهن كانت رحلة طلاب العلم في عصور عز المسلمين . . .
 وسلام على من اتبع الهدى . . .

جدة :

١٥ من ذى الحجة ١٣٩٢ هـ .

من وحيِ الملتقى

«وأذانٌ من الله وَرَسُولِهِ إِلَى النَّاسِ يَوْمَ الْحَجِّ
الْأَكْبَرِ»

من ذُرّاً عرفات ، إلى سفح المَكْبَر

في طريقى إلى المسجد الحرام ، ذكرت المسجد الأقصى في محنته ، وقد بُعد عهده بوفود
الحجاج ، وحطّ عليه الشيطان يريد ليجعل منه معبداً للطاغوت . فتجسست المفارقة بين
المسجدين ، ضُربَ بينها بسورٍ باطنه فيه الرحمة ، وظاهره من قبله العذابُ .
وفى مسمعى نداء عاهل الجزيرة « خادم الحرمين » يؤذّن فى وفود الموسم بالجهاد ويذكر
المسلمين بعار إسرائيل ، ويستنفزهم لمعركة الشرف والبقاء ،
فهل يبلغ الأذان من المسجد الحرام مسمعاً من أمة تولى وجهها شطره حيث تكون ؟

• • •

من فجاج الأرض حَجُّوا عابدين
وعلى عرفات قاموا خاشعين
قد تناسوا ما على أرض البشر
من هموم وعداوات وشر
وتماحت بينهم كل الفروق
فى حصى الكعبة والبيت العتيق
وانحنت هامُ الرعايا والملوك
للذى تعدّو له كلّ الجباه
وإليه ، فى سماوات علاه
رفعوا النجوى دعاة وصلاه
« ربنا لييك إن الحمد لك »

• • •

(١)

خشع الكون لمراى المؤمنين
مذاهلوا فى خشوع مُحرمين
عيدُهم حج وسعى وفداء
وأمانى عمرهم هذا اللقاء
لِيلبوا ضارعين قانتين
وحدك اللهم ياخالق نعبدُ
وعلى نورك يارب محمد
كل مسعانا لدنيا أولدين

(٢)

وعلى سفح المكبر
عند أولى القبلتين ،
ثالث الأقداس صنو الحرمين
فى جوار المهدي من أرض السلام
نشر الشيطان طاغوت الظلام
ومضى يعوى ويزار . . .

* * *

وتوارى القدس فى جوف الدجى
بأنس الأطلال محبوب السنى
يسأل الأنقاض : « أين الموعد ؟
لِيُطلَّ الفجر من ذاك الضباب
أين مسرانا وأين المعبد ؟ »
ثم لارداً ، سوى رجع الصدى
وعواء الوحش من مرعى الذئاب

* * *

وعلى المهدي المسهدُ
 غصنُ زيتون ينيم
 ويقايا من هشيم
 وصدى صوت بعيد يتردد
 من ذُرا عرفات إلى سفح المكبر:
 « وحدهك اللهم نعبد . . »
 وعلى مسرى محمد ،
 بجوار المهدي من أرض السلام
 ينشر الشيطان طاغوت الظلام ،
 ويعربد . .

أغنية للعيد

« إلى أُمِّي ، في لياليها الساحرة ! » .

(١)

عبدنا كان على طول المدى
يملاً الأفق بهاءً وسنى
كلما هلّ احتشدنا للقائه
ونهلنا الأنسَ من فيض عطائه
وشدّونا ، والدنّى تصفى لنا :
« ربنا لييك إن الحمد لك »

• • •

للملايين على مرّ الزمن
من حجاز وعراق ويمَن
من ضفاف النيل حتى الأطلس
من رُبا الشام وبيت المقدس
كم رآها العيد في يوم مني
تلتقي روحاً وقلباً ومُنى
يهتاف العيد بعلو في الفضاء
ربنا لييك ياتور السماء

(٢)

عيدنا اليوم وجوم وغضب
يرفض الصبر ويخفوه الطرب
جرّحتنا يتزف من جرح الحمى
فيرد الشهد مرّاً علقا

عُصْبَةُ السَّفَاحِينَ أَعْدَاءُ الْبَشَرِ
 دُنُسَتْ أَرْضُ الرِّسَالَاتِ الْكُبَرِ
 شُوهِتْ وَجْهَ الْحَيَاةِ
 مَسَحَتْ كُلَّ الْقِيَمِ
 وَاسْتَبَاحَتْ حَرَمَةَ الْإِنْسَانِ
 فِي قُدْسِ الْحَرَمِ

عِيدُنَا تَارُ أُلُوفِ الشَّهَدَاءِ
 وَمَلَائِينَ الضَّحَايَا الْأَبْرِيَاءِ
 وَمَأْسَى اللَّاجِثِينَ الْغُرَبَاءِ
 وَبَطُولَاتِ الْجُنُودِ الشَّرَفَاءِ
 وَهَتَافِ بَدْعَاءِ الْمُصْطَفَى
 يَوْمَ عِيدِ النَّصْرِ فِي أُمِّ الْقُرَى :
 رَبَّنَا لَبِّيكَ إِنْ الْحَمْدُ لَكَ .

وَهُوَ ذَكَرَى مِنْ مَضَى
 مِنْ أَحِبَّائِنَا ،
 وَحَدِيثِ الْغَدِّ عَنَّا ،
 لَبْنِيْنَا بَعْدَنَا
 لَنْ يَقُولُوا إِنَّا كُنَّا هُنَا
 قَدْ طَوَّنَا أَوْ نَسِينَا مَا بَنَا
 لَنْ يَقُولُوا إِنَّا نَمْنَا عَلَى ضِمِّ بِنَا ،
 نَتَسَلَّى بِحِكَايَا ، مِنْ هُنَا أَوْ مِنْ هُنَا
 وَفِكَاهَاتِ أَلْفِنَا مَضَعَهَا
 نَبْعِدُ الْهَمَّ بِهَا عَنْ بَالِنَا
 لَنْ يَقُولُوا إِنَّا فِي أَعْيَادِنَا

قد غفونا لحظة عن مأساتنا
 وكأننا لا نعي أبعادها ،
 وكأننا لا نرى آمادها

• • •

عيدنا تارُّ ألوف الشهداء
 وملايين الضحايا الأبرياء
 ومآسى اللاجئين الغرباء
 ويطولات الجنود الشرفاء
 وهتاف بدعاء المصطفى
 يوم عيد النصر في أم القرى :
 ربنا لبيك إن الحمد لك

رسالة العيد

من جنود الجبهة ، إلى حجاج الموسم

في طواف الوداع ، صبحَ يوم الرحيل ، بدأت أحس نقل الموم التي تحففت منها منذ
حلتُ بالحي الآمن . وذكرتُ كتائب المرابطين من شباب الأمة ، على خطوط وقف
القتال ، يقضون عيدهم ، كما قضوا أعياداً قبله ، في انتظار معركة الشرف والوجود
والمصير .

فكأنني سمعهم ، في رؤياي ، يُقضون إلينا بنجوى أرواحهم الظامئة إلى الفداء :

• • •

أهلنا الحجاج من شرق ومغرب
ياضيوف الله في أم القرى ،
وضيوف المصطفى في روض يثرب ،
سلم الله عليكم ،
وهنيئاً عيدكم ،
في حمي البيت الحرام .

• • •

أهلنا . نحن أيضاً كم وددنا .
أنا كنا هناك ،
محرمين ، طائفين عابدين
نحتلي نور الحرم ،
نزوى من نبع زمزم
ثم نسعى زائرين ،
مرهق الشوق إلى مثنوى الحبيب
صلوات الله عليه والسلام

• • •

أهلنا ،

هذه الرحلة كانت ،

في الصبا ملء رؤانا

قبل أن نبليغ تكليف العقيدة

قبل أن ندرك مغزاها فريضه

في صبانا ، كم شجانا كل موسم

موكبُ الحجاج من أهلٍ وجيره

ومراسيمُ الوداع ،

وحشودُ الضارعين ،

يسألون الركب في يوم الرحيل :

اذكرونا في منى ،

وعلى عرفات لا تنسوا الدعاء

واذكرونا في الحرم

واحملوا منا السلام

للحبيب المصطفى خير الأنام

• • •

وبقيتنا في انتظار ،

كلما قلنا متى نذهب صُحبَه ؟

قيل : صبراً ، أنتم الآن صغار

وسياتي دوركم ، حقق الله مناكم .

• • •

أهلنا ،

في صبانا كم خرجنا ،

من قرانا والبنادر

عندما تأتى البشائر .

لللقاء العائدين ،

بالدفوف والطبول

والمشاعل والمجامر .
 وملأنا الجو شدواً
 بأغاريد الفرح ،
 ونحيات الوصول .
 وسهرنا الليل نصغى ،
 بالقلوب والعقول ،
 لحديث الحاج عن أنس القبول ،
 والمشاهد والمواقف ،
 والمتناسك والشعائر
 وازدحمنا حوله نبغى القبرى ،
 من هدايا وكنوز وذخائر :
 لحة من نور مكه ،
 جرعة من ماء زمزم
 نفخة من عطر طيبة
 ثمرة من نخل يثرب
 ونقول الله أكبر ،
 ياهناه ، حقق الله مُناه !
 والحبيب قد دعاه ،
 ففى تنمو ونكبر ؟

• • •

رحلة كانت لنا ،
 حلم الصبا وعدّ الشباب ،
 قبل مأساة الهزيمة
 وكبرنا ، ففرغنا عقيدة
 عبأتنا للجهاد ديناً وعباده
 حشدتْنا هاهنا خمس سنين

في انتظار المعركة
وأمانينا فداء وقتال وشهاده

• • •

فاذكرونا أهلنا ،
نحن جند الله جيل المعركة
اذكرونا في منى ،
وعلى عرفات لا تنسوا الدعاء
بلغوا عنى الحبيب .
أنا نرعى حياه .
وتؤدى فرضتنا ،
وعلى وعد اللقاء ،
في رحاب الخلد مثنى الشهداء
قد نثرنا هدينا ،
عندما يأتي الأوان ،
يوم عيد نحرنا .
وسلاماً أهلنا حجاج مكة
ياضيوف الله في البيت الحرام
وضيوف المصطفى خير الأنام

فهل قد بلغت الرسالة ؟
أرجو وأمل . .

عرفات :

٩ من ذي الحجة ١٣٩٢ هـ

الفهرست

الصفحة

٥	دعاء
٧	إهداء

(١)

١١	رحلة إلى جزيرة العرب ١٣٧٠ هـ - ١٩٥١ م
١٧	ليلُ الجزيرة ، وآية البيان
٢٧	الفجر الصادق ، وآية الفرقان
٣٧	وراء الأسوار
٤٥	المعركة الكبرى
٥١	وجهاً لوجه ، في قلب الصحراء
٥٧	ثورة في الصحراء
٦١	صور من الجزيرة
٦٣	المغتربات
٦٧	جارة النبي
٧٣	هاجر
٧٩	آمنة
٨٩	أصدقاء من الجزيرة
٩١	من بعيد

الصفحة

(٢)

لقاء مع التاريخ

١٣٩٢ هـ : ١٩٧٢ م

٩٧

ليك اللهم ليك

٩٩

في دار الهجرة

١١١

عوداً على بدء

١٢١

من وحى المتنبي

١٢٥

من ذُرا عرفات ، إلى سفح المكبر

١٢٧

أغنية للعبد

١٣١

من جنود الجبهة إلى حجاج الموسم

١٣٥

الفهرست

١٣٩

دار المعارف

تقدم من مؤلفات الدكتورة بنت الشاطي

في الدراسات القرآنية والإسلامية :

التفسير البياني للقرآن الكريم (في جزأين)

مقال في الإنسان : دراسة قرآنية

الإعجاز البياني للقرآن ، ومسائل ابن الأزرق

القرآن والتفسير العصري

مع المصطفى ، في عصر المبعث

نساء النبي عليه الصلاة والسلام

وفي الدراسات الأدبية :

رسالة الغفران : نص محقق (طبعة الدخائر)

الغفران : دراسة نقدية

قيم جديدة للأدب العربي ، القديم والمعاصر ١ ، ٢

لغتنا والحياة

تراثنا ، بين ماضٍ وحاضر

الخنساء

١٩٧٩/٣٣٥٣	رقم الإيداع
ISBN ٩٧٧ - ٢٤٧ - ٧٥٢ - ١	الترقيم الدولي

١/٧٩/١٢٠

طبع بمطابع دار المعارف (ج.م.ع.)

أرض المعجزات

هذا الكتاب تحدثنا فيه الدكتورة بنت الشاطئ عن جولة واسعة المدى في تلك الأرض الحبيبة إلى كل قلب ، الجديرة بكل إعجاب ، لأنها أرض المعجزات ، التي قدّر لها منذ أربعة عشر قرناً أن تغير بالإسلام تاريخ العالم ، وتقرر مصائر دول وشعوب وحضارات وديانات .

وهذه الأرض ذات المنابع الروحية المقدسة تشارك اليوم في دنيا المادة كما تشارك في دنيا الروح ، وتدفع سبيل الزيت دافقاً غزيراً ، فتسهم بذلك في تقرير مصير العالم . فهي أرض دين ودنيا جدرة بأن نجول في جنباتها ونقرأ ما كتب الرحالون عنها ، وما شاهده الجوالون في نواحيها المختلفة .